

الميرزا السيد علي القاضي

حياته:

ولد السيّد علي آغا القاضي في الثالث عشر من شهر ذي الحجة من سنة ١٢٨٢هـ ق، في مدينة تبريز ونشأ تحت رعاية أبيه المرحوم السيّد حسين القاضي - المتوفى ١٣٤١هـ ق - فربّاه أحسن تربية وغدّاه من دُرّ الفضل ومعين النبوغ. هو من أسر العلمية النابهة مشهورة معروفة ينتهي نسبها إلى الإمام الحسن المجتبي (عليه السلام). هذه الأسرة غنيّة عن التعريف والإطالة في نعتها وبيان مالها من المكانة في النفوس تحمل نفساً شريفة وأخلاقاً فاضلة وسجايًا حميدة توارثها الأبناء عن الآباء والخلف عن السلف. كتب الشيخ آغا بزرك الطهراني - صاحب الذريعة - (قدّس سرّه): (الحاج السيّد الميرزا علي بن الميرزا حسين بن الميرزا أحمد بن الميرزا رحيم الطباطبائي التبريزي القاضي، عالم، مجتهد، تقي، ورع، أخلاقي، فاضل... أخذ الأولياء عن بعض الأفاضل وتتلّمذ على والده وعلى الميرزا موسى التبريزي - صاحب حاشية الرسائل - والسيّد محمد علي القره جه داغي - صاحب حاشية شرح اللمعة -).

هاجر إلى النجف الأشرف، سنة ١٣١٣هـ ق فحضر على المولى محمد الفاضل الشرياني والشيخ محمد حسن المامقاني والميرزا حسين

الخليلي . . . وكان يعدّ من أفاضل تلامذة الأخير . . . فقد برع في الفقه والأصول والحديث والتفسير وغيرها . وكان من رجال الأخلاق ، فقد تهذّب على الخليلي وغيره وعرف بذلك في أوساط أهل العلم ودرس في ذلك وكان له حلقة وتلامذة ومريدون . وكانت معرفتي به قديمة . . . إذ اتفقت هجرتنا إلى النجف الأشرف في عام واحد وبدأت صلتني به يومذاك وقد دامت المودة والصحة بيننا عشرات السنين فرأيتّه مستقيماً في سيرته ، كريماً في خُلُقهِ ، شريفاً في ذاته . وكان أهل العلم والاستقامة يجلبونه ويكرمونه . . . حتى انتقل إلى رحمة الله ليلة الأربعاء السادس من ربيع الأول سنة ١٣٦٦ هـ . ق ودفن في وادي السلام قرب مقام المهدي - عجل الله تعالى فرجه الشريف - وأرّخ وفاته العلامة المرحوم الشيخ محمد السماوي في أبيات فقدتها ، إلّا أنّ مادة التاريخ منها قوله : « قضي على العلم بالأعمال » . له تفسير القرآن من أوّله إلى قوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ^(١) من سورة الأنعام . وعلمت أنّ له آثاراً وكتابات غيرها لم أقف عليها . ولوالده ، المتوفى ١٣١٤ هـ . ق ، تفسير أيضاً والميرزا مهدي القاضي عمّ جدّ المترجم من الأعظم المشاهير . . . جدّه الأمي الميرزا محسن . . . وبيتهم بيت فضل وتقى قديم ^(٢) .

يقول السيد محمد حسن نجل السيّد القاضي : الذي وجدناه بخطّه (قدّس سرّه) أنّه ولد سنة ١٢٨٢ هـ ق وهاجر إلى النجف الأشرف سنة ١٣٠٨ هـ ق . قوله : « أخذ الأوليات من بعض الأفاضل . . . » في اصطلاحهم الأوليات يعني العلوم العربيّة ، النحو والصرف والبلاغة . وكان يقول (قدّس سرّه) : أنّه تتلّمذ على الأديب الشاعر الميرزا محمد تقي التبريزي ، المعروف بـ « حُجّة الإسلام » والمتخلّص بـ « نَيْر » وكان يروي عنه شعراً

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ .

(٢) « نباء البشر في القرن الرابع عشر » ، ١ / ١٥٤٥ .

كثيراً فارسياً وعربياً ومما كان يروي وحفظ عنه «أرجوزته الألفية» التي يسميها بـ «قسوة الفصل» ومنها يعرف مبلغ معرفة هذا الشيخ الفاضل بأداب اللغة العربية وتوفي ١٣٢٤ هـ ق.

قوله: «وتلَّمذ علي والده...» أمّا تلَّمذه علي والده السيّد حسين القاضي (١٣١٤ هـ ق) والذي كانت له رغبة تامّة بعلم التفسير وله فيه يد طولى وكان (قدّس سرّه) يذكر أنّه قرأ تفسير الكشاف للزمخشري، عليه. ومع أنّ السيّد ميرزا حسين - جدّنا - كان قليل المعاشرة والاختلاط بالناس إلّا أنّ مجلسه الأسبوعي لتدريس التفسير في تبريز والذي كان يبدأ من الصباح حتى أعالي النهار. كان يحضره جمع كثير من الفضلاء - على ما ذكر.

قوله: «تَهذَّبَ على الخليلي وغيره...»... [كان الخليلي] من أعظم العلماء العباد في عصره وكان (قدّس سرّه) يذكره كثيراً ويطري ويشني عليه ثناء جميلاً ولم أره يعجب بأحد مثل أستاذه هذا وما ذكر اسمه عنده إلّا وسيطر عليه البهت والسكوت وأغرق في التأملات. ويقصد بـ «غيره» السيّد أحمد الكربلائي والسيّد مرتضى الكشميري... وقوله: «كان له حلقة وتلامذة ومريدون...» ذكر العلامة آية الله السيّد محمد حسين الطهراني فيما كتب عن أستاذه العلامة الطباطبائي: ومن جملة تلامذته (آية الله الحاج ميرزا علي القاضي) والمختصّين به: العلامة الطباطبائي والشيخ محمد تقي الأملي والسيّد حسن الأصفهاني المسقطي والشيخ علي قسام والسيّد هاشم الحدّاد والشيخ عبّاس القوجاني المعروف بـ «هاتف» والشيخ علي محمد البروجردي والميرزا الشريفي والشيخ محمد تقي اللاري والشيخ علي أكبر المرندي والسيّد هاشم الهندي الرضوي... وعدد غيرهم...»^(١).

أُساتذته في السلوك العرفاني

أهميّة الأستاذ الكامل لِلسّالِكين

يقول العلامة حسن زاده الأملي في شأن السيّد الميرزا علي آغا القاضي: كان آية الله السيّد القاضي من عجائب الدّهر... من كلمات المرحوم الحاج السيّد علي القاضي المُثير والمُغري هو قوله: «إذا قضى الإنسان نصف عمره في البحث عن أستاذ كامل فلم يقض شيئاً كثيراً»^(١).

ومن هنا ندرك أهمية الأستاذ الكامل للسالكين في طريق العرفان، فقد يلتقي السالك في حياته ببعض العرفاء أو العلماء الذين يتأثر بأخلاقهم ويستفيد من مواظهم وإرشاداتهم في تهذيب سلوكه ولكن للأستاذ منزلة أخرى أهمّ من ذلك وليس الأستاذ ممّن يختاره السالك لنفسه؛ بل هو ممّن يختاره الله تعالى له. كما لا بدّ لمن يريد السلوك في طريق العرفان من أستاذ يرشده ويأخذه بيده للوصول إلى الكمال، فإنّ السير في طريق السلوك الروحي مليء بالمطبات والمتاهات التي يضلّ فيها السائر وحده أو من اختار أستاذاً لنفسه لم يصل إلى درجة الكمال وفي ذلك يقول السيّد علي القاضي: «إنّ أهمّ ما يحتاجه السالك في طريق

(١) ذكرى العلامة الطباطبائي رَحِمَهُ اللهُ (يا دنامه علامه طباطبائي)، ص ٩٢.

هو الأستاذ الخبير، المتحرّر من الأهواء، والإنسان الكامل المتبحّر في المعارف الإلهية والذي طوى إضافة إلى سيره إلى الله ثلاثة أسفار أخرى وكانت سياحته في عالم الخلق بالحق^(١).

أما أستاذ السيّد علي آغا القاضي؛ قال العارف الكبير وشيخ السالكين الشيخ محمد تقي البهجة الرّشتي: «وصل السيّد علي القاضي إلى النجف الأشرف - على مُشرفها آلاف التّحف - بعد مرور عدة أشهر من وفاة أستاذ العرفاء الشيخ حسين قلى الهمداني، فتلقّى التربية الروحية والسلوكية على يد السيّد أحمد الحائري واحد العين والشيخ محمد البهاري - قدّس الله أسرارهم أجمعين -»^(٢).

وكان السيّد القاضي يعتبر أستاذه السيّد أحمد الكربلائي المعروف بـ «واحد العين»، إنساناً كاملاً، يقول: كنت ليلة في مسجد السّهلة - زاده الله شرفاً - فدخل المسجد شخص في منتصف الليل ووقف في مقام إبراهيم ﷺ وسجد بعد صلاة الصبح سجدة استمرّت إلى طلوع الشمس، فذهبت أستطلع أمره فإذا هو الإنسان الكامل السيّد أحمد البكّاء - قدّس الله سرّه القدّوسي - وقد تحوّل تراب سجوده طيناً من كثرة بكائه وعندما ذهب صباحاً إلى غرفته في المسجد كان يضحك بصوت عال بحيث أنّ صدى ضحكاته كانت تصل إلى خارج المسجد وفي ذلك فليتنافس المتنافسون^(٣).

لم أر مثله في النجف:

ذكر العلم العلّام والفيلسوف الهمام السيّد جلال الدين الآشتياني،

(١) «السير والسلوك» لبحر العلوم، ص ١٧٤.

(٢) «تاريخ الحكماء والعرفاء» للصدوقي سُها، ص ١٢٠.

(٣) «تاريخ الحكماء والعرفاء» ص ١٣٥.

نقلًا عن العلامة الطباطبائي، نقلًا عن أسناده الشيخ محمد حسين الغروي الكمباني، الثمينة والأصولي المعروف، أنه كان يقول: «لَمْ أَوْ فِي النَجْفَةِ الْأَشْرَفِ أَفْهَ وَأَعْلَمَ وَأَعْدَلَ مِنَ السَّيِّدِ أَحْمَدَ الْكُرَيْلَاوِيِّ الْحَاثِرِيِّ وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ يَهْرَبُ مِنَ النَّاسِ وَيَحْبِلُ أَمْرَ الْفُضَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْلَامِ الْمَوْجُودِينَ فِي النَجْفَةِ الْأَشْرَفِ - نَعْبُدُهُمُ اللَّهَ تَعَالَى بِرَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ»^(١).

قال السيد محمد حسن القاضي «وقد صاحب [والقدي] (قدس سره) [في النجفة الأشرف يادى الأمر السيد الأجل، جمال السالكين، السيد مرتضى الكشميري الرضوي، زهاء عشر سنوات واكتسب منه - على حدّ تعبيره - فنوناً من المعارف الإسلامية، والمُخَلَّفَةِ، والعادية، والرياضات الفلسفية والنهائية، ومراتب الرضا والتعلُّيم، وأرق في سرّه المحذوات الوجدانية العليا، التي ظلّ طوال عمره الشريف يذكرها ويترجم على أسناده ويطلب من البارئ تعالى له المعفرة والرضوان. وهو وإن كان ينكر استاذيته بالمعنى الأحصص، إلّا أنه كان يعتبر، ممّن وضعه على الطريق، وأحد بيده في قطع الأشواط الأولى من سيرة السلوكي والأخلاقي بالمعنى الأعم».

وبعد وفاة السيد جمال السالكين الرضوي، لازم أو قام بخدمة - كما يسمّون - السيد أحمد الكريلاوي، الذي قالوا عنه إنه كان أو حدي عصره في مراتب العلم والعمل والسلوك وكان هو (قدس سره) يذكر عظيم ما شاهد من استاذية - الرضوي، والكريلاوي الطهراني - من مراتب التنسك والتعبّد والنهجد وخوارق العادات والمزايا النفسية العالية وعلو الهمة والمجد والنسودد بالإضافة إلى ما عرفا به من العلم والمعرفة والفضاعة ورواية الحديث بنثر منبهاهما بين طلبة العلوم وسائر الفضلاء والمرموقين

من العلماء والزعماء الدينيين. ويذكر أنه (قدّس سرّه) مع ما كان يُكرّ لهؤلاء من الإكبار والإعظام والتّجلة والاحترام، كان ينكر أن يكون قد تتلمذ عليهما، أو يكونا هما اللذان وضعاه على الطريق، مع أنّه استعان بهما واستفاد منهما روحياً ونفسياً وخلقياً كثيراً.

بل كان يذكر أن الذي وضعه على الطريق هو السيّد حسين القاضي والده المعظّم، الذي كان قد تتلمذ على آية الله العظمى السيّد ميرزا حسن الشيرازي - قدّس سره الشريف - في الفقه وقد تتلمذ في العرفان على «إمام قلى» [النّخجواني] الذي كان بدوره تلميذ السيّد قريش . . . وقد أثّرنا نقل حديث هؤلاء الثلاثة عن لسان آية الله العلامة السند والحبر المعتمد، السيّد محمد حسين الطهراني^(١).

يقول (الحاج السيّد هاشم الموسوي الحدّاد): لقد كان المرحوم السيّد القاضي عالماً لا مثيل له في الفقه ولا مثيل له في فهم الرواية والحديث ولا مثيل له في التفسير والعلوم القرآنية وفي الأدب العربي واللغة والفصاحة وحتى في التجويد والقراءات القرآنية وكان يحضر أحياناً مجالس الفاتحة فلا يجرو إلا القليل من قُرَاء القرآن على القراءة في حضوره، لأنّه كان يبيّن الإشكالات في تجويدهم وأسلوب قراءتهم. وكان المرحوم القاضي يتشرّف بالمجيء إلى كربلا ويتفصّل - مجلّلاً - بالنزول في المنزل المتواضع للحقير. وبالرغم من كونه غارقاً إلى حدّ كبير في بحر المعارف الزاخر، إلا أنّه - مع ذلك - كان يقرأ لي أحياناً من الأشعار الفصيحة والبليغة، من جملتها هذه الأشعار الواردة في استعمال الكلمات المشتركة لفظاً متعدّدة معنى:

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام»، ٢٨٩/١.

يَا خَلِيَّ الْبَالِ قَدْ بَلَبَلْتَ بِاللِّبَالِ بَالُ
 بِالنَّوَى زَلْزَلْتَنِي وَالْعَقْلُ فِي الزَّلْزَالِ زَالُ
 يَا رَشِيقَ الْقَدِّ قَدْ قَوَّسْتَ قَدِّي فَاسْتَقِمِ
 فِي الْهَوَى فَاْفُرْغْ فَقَلْبِي شَاغِلُ الْأَشْغَالِ غَالُ
 يَا أَسِيلَ الْخَدِّ الدَّمْعُ خَدِّي فِي النَّوَى
 عَبَّرْتِي وَذُقْ وَعَيْنِي مِنْكَعُ يَا ذَا الْخَالِ خَالُ
 كَمْ تُسَقِّي زُمْرَةَ الْعُشَّاقِ غَسَّاقَ الْجَوَى
 كَمْ تَسُوقُ الْحَتَفَ مِنْ سَاقٍ عَنِ الْخَلْخَالِ خَالُ
 إِلَى آخِرِ الْأَبْيَاتِ وَيَتَّضِحُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْحُومَ الْقَاضِيَّ كَانَ يَحْفَظُ
 جَمِيعَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الرَّائِعَةِ . . . »^(١) .

جامعيّة العلامة القاضي في العلوم المختلفة

نقل العلامة السيّد محمد حسين الطهراني عن العلامة سيد محمد حسين الطباطبائي رحمته الله: «لم يكن للمرحوم القاضي من نظير في اللغة العربية ويقال: إنّه حفظ أربعين ألف كلمة. وكان ينشد الشعر العربي بطريقة لم يكن العرب يتصوّرون أنه أعجميّ. وروي أنّه كان مع المرحوم آية الله الحاج الشيخ عبد الله المامقاني رحمته الله عليه في إحدى جلسات المباحثة، فقال له الشيخ: إنّ لي تسلّط على اللغة العربية وأشعارها بحيث أستطيع أن أميّز من ينشد الشعر العربيّ إذا كان عجمياً حتى ولو كان شعره في أعلى مستوى من الفصاحة والبلاغة.

فبدأ المرحوم القاضي يقرأ قصيدة لأحد الشعراء العرب، ثم أضاف بداهة عدّة أبيات من تأليفه وقال له: أيّ الأبيات التي ليست للعرب؟ فلم يستطع تحديدها.

وكان للمرحوم القاضي باع طويل في تفسير القرآن الكريم ومعانيه وكان أستاذنا المرحوم العلامة الطباطبائيّ يقول: إنّ هذا الأسلوب الذي يفسّر الآية قد تعلّمناه من المرحوم القاضي ونحن ننهج نهجه في التفسير. أما بالنسبة لفهم معاني الروايات المنقولة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام فقد كان يمتلك ذهنًا وقادراً ومعرفة واسعة وقد تعلّمنا منه طريقة فهم الأحاديث

التي يقال لها: «فقه الحديث». كان المرحوم القاضي في تهذيب النفس والأخلاق والسير والسلوك في المعارف الإلهية والواردات القلبية والمكاشفات الغيبية السبحانية والمشاهدات العينية، فريد عصره ووحيد دهره وسلمان زمانه وترجمان القرآن^(١).

تلاوة القرآن بشرائط خاصة

ذكر آية الله الشيخ محمد تقي الآملي رحمته الله: «كنتُ أحضر مباحثة الفقه عند السيّد القاضي وأتفق أن سأله يوماً - وكان الجوّ بارداً - نقرأ ونسمع عن الآخرين أنهم حين قراءة القرآن الكريم تتفتح أمامهم الآفاق وتتجلّى لهم الغيوب والأسرار ونحن نقرأ ولا أثر ولا أيّ شيء؟! فنظر في وجهي قليلاً، ثم قال: نعم، إنهم يتلون القرآن الكريم وبشرائط خاصة: يقفون على أرجلهم بأتجاه القبلة، حاسري الرأس، رافعين كلام الله بكلتا يديهم ومتوجّهين بكل وجودهم إلى ما يتلون وأمام من! أمّا أنت تقرأ القرآن وقد دخلت تحت الكرسي إلى ذقنك ووضعت القرآن على الأرض تنظر فيه... كذا؟!

قال الشيخ: نعم، كنتُ هكذا أقرأ القرآن وأكثر من القراءة، فكأته (قدّس سرّه) كان معي يراقبني وقت القراءة ومنذ ذلك اليوم انصرفت بكلّ وجودي نحوه والتزمت مجلسه^(٢).

عاش السيّد الميرزا علي آغا القاضي في أقصى مراتب الفقر في النجف بحيث كان عاجزاً حتى عن دفع إيجار دار السكن وقد رُمي يوماً أثاث منزله في الشارع فاضطر أن ينتقل بعائلته إلى إحدى غرف مسجد

(١) «الشمس الساطعة» ص ٢٤.

(٢) «صفحات من تاريخ الأعلام» ص ٢٢٥/١.

الكوفة المعدّة لمبيت الزوّار والغرباء . ومع ذلك لم يثنه الفقر عن التوجّه الكامل لله عزّ وجلّ . يقول العلامة الطباطبائي رحمته الله : عندما انتقل السيّد القاضي إلى مسجد الكوفة ، ذهبت لزيارته ، وجدته وجميع أفراد عائلته مصابين بالحمى ، وعندما كبر المؤذن للصلاة قام - كعادته - لأداء الصلاة في أول وقتها ثم تلا بتوجّه كامل قوله تعالى : ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِيَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ ^(١) .

ثم استغرق بالذكر والدعاء بهدوء عجيب وكأن شيئاً لم يكن ^(٢) !

قصة الفقر وعدم العملة؛

ذكر أحد تلامذة السيّد علي القاضي : كنتُ أحضر مجلس السيّد القاضي وكنت في ضائقة مالية شديدة ، شأن أكثر الطلبة في النجف الأشرف ، كنت أتعشى أكثر الليالي بالخبز والشاي فقط وفي إحدى الليالي كانت لديّ قطعة نقدية صغيرة تكفي لشراء قرص من الخبز ، كان من نيّتي أن أشتري بها الخبز عندما أعود من المجلس وفي أثناء حديثه - وكان مجلسه في غرفة من غرف المدرسة الهندية - دخل علينا مسكين يستعطي وفجأة مدّ السيّد القاضي يده نحوي وقال : هل لديك شيء نعطي هذا المسكين؟ فمددت يدي في جيبِي وأخرجت القطعة النقدية الوحيدة ودفعتها له ، أخذهما ودفعها للمسكين ثم استرسل في حديثه .

فأجاب : إنّ الإذن العام الذي صدر لمواليهم يكفينا جميعاً ولا حاجة إلى كسب إجازة خاصة .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ .

(٢) نقلاً عن حديث إذاعي لآية الله السيّد إبراهيم خسرو شاهي ، في ٢٥ رمضان ١٤١٨ .

وعلى أيّ حال، وبعد الإلحاح الشّدِيد، علّمني الورد الخاص عنده لهذا الغرض ويتلخّص في قراءة «آية التّور» بعدد أصحاب بدر كل ليلة قبل النوم بشروط: الطهارة، والاجتناب من النساء، وأمور أخرى ليالي معدودة ومحدودة. فذهبت إلى مسجد السّهلة ولزمت الجامع وقمت بوردي ليالي وفي إحدى هذه الليالي من حين بدأت وردي أحسست كأنّ أحداً يضع يده على كتفي فتوجّهت نحوه - وأنا حينذاك في المقام المنسوب للإمام المهدي عليه السلام - فقال: استعد للتشرّف!

يقول الشيخ: وما إن طرقت سمعي هذه الكلمة إلّا واستولى الرّعب والخوف عليّ وأخذ بمجامع قلبي وكدت من فرط الاضطراب أن أخرج من إهابي فأخذت أتوسّل منه أن يعفيني وهكذا كان القبول.

فذهبت من فوري إلى النجف الأشرف ولقيت «الآقا» فجابهنّي - قبل أيّ حديث - بقوله إذا لم تكن مستعداً فلماذا كلّ ذلك الإلحاح؟!

«وصايا العلامة القاضي»

قال العلامة السيّد محمد حسين الطهراني: كنتُ جالساً أحد الأيام في الحرم المطهر للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام خلف جهة الرأس الشريف بعد إتمامي الصلاة وأداء ركعتي صلاة الزيارة، حيث كان جالساً إلى جانبي سماحة حجة الإسلام العلامة اللاهيجاني الأنصاري دامت بركاته. فتطرّق الحديث في ذلك المكان المقدّس إلى ذكر الفقيه الإسلامي والعارف الجليل المرحوم الحاج الميرزا علي آقا القاضي، وباعتبار أن العلامة اللاهيجاني كان يتردّد في النجف الأشرف على محضر سماحته، فقد نقل عنه عدّة أقوال تستحقّ العناية والتأمّل، من بينها أنّ ذلك المرحوم كان يقول: لا تصلّ دائماً في مسجد واحد، واذهب إلى المساجد الأخرى أيضاً. وحيثما وجدت فيضاً معنوياً فصلّ هناك. أمّا إذا لم يحصل لديك توجّه في مكان ما، فغيّر ذلك المكان وانتقل إلى مسجد آخر. والخلاصة فإنّ التوقّف في مكان واحد أمرٌ لا داعي له. وينبغي على المرء أن يبحث باستمرار عن حالة معنوية أفضل للتوجّه، وعليه الانتقال في طلبها من مكان إلى آخر، وصولاً إلى اختيار الموضع الذي يحصل فيه على توجّه والتفات أفضل. (وكان يقول): إن لم تحصل على مرادك في مسجد الكوفة فأذهب إلى مسجد السهلة، وإن لم تحصل على

مرادك في مسجد السهلة فاذهب إلى مسجد الكوفة وهكذا .

وكان من ضمن أقواله إنّ على الإنسان أن لا ييأس أبداً ، وأن لا يكفّ عن السير والسلوك إن تأخر وصوله إلى النتيجة . فقد يحفر المرء الأرض بظفره ثم ينبع تحت أصابعه فجأة ماء زلال فوّار كمثّل عنق البعير .
ومن بينها قوله : مَنْ كان همُّه الله كفاهُ الله في جميع همومه .

ومن بينها أني سألته يوماً (والكلام للعلامة اللاهيجاني) عن الذكر الذي أرّده في مواقع الاضطراب والابتلاء وعند تعسر الأمور ، سواء فيما يتعلّق بالأُمور الدنيوية أو الأُمور الأخروية ، فأجاب : صلّ على محمد وآله خمس مرات ثم اقرأ آية الكرسي مرة ، ثم أكثر في قرارة نفسك من قول اللهم اجعلني في درعك الحصينة التي تجعل فيها من تشاء حتى يتيسّر الأمر^(١) .

«تعال، تعال إلينا ولا تحف»

يقول السيّد حسن المصطفوي التبريزي : جئت إلى النجف الأشرف للالتقاء مع السيّد القاضي والاستفادة منه ولكنّي عندما وصلت إليها خشيت من زيارته لمّا رأيت الأجواء العامة في الحوزة العلمية ضد السيّد القاضي ولمّا سمعت بعض طلبة العلوم الدينيّة في النجف الأشرف يسلقونه بالسنة حداد . وفي يوم كنت جالساً إلى جانب الباب المقابل للسوق الكبير للمرقد الطاهر لأمر المؤمنين عليه السلام ، فكنت أرى كلّ من يدخل ويخرج من باب القبلة والسلطاني ، وكنت مستغرقاً في أفكارٍ وأسائل نفسي لماذا جئت إلى النجف وأنّي ما أتيت إلّا للالتقاء بالسيّد القاضي والآن أنا خائف من زيارته وفي هذه الأثناء رأيت سيّداً جليلاً خرج من الحرم الطاهر ثم أحاط

ببدنه شيئاً فشيئاً نور حتى سطع النور من جهاته الست، فعشقت هذا السيّد وتوجّهت إليه بمجامع قلبي، ثم رأيته ذهب من باب الحرم السلطاني وجلس عند قبر الملاً فتح علي سلطان آبادي وفي هذه اللحظة رأيت ذلك السيّد النوراني أسراً إلى أحد الذين معه شيئاً، فقام ذلك الشخص واتّجه نحوي وعندما وصل لي قال: يقول لك السيّد: «يا مَنْ اسمه حسن وسريته حسنة وشكله حسن وشغله حسن، لماذا تخاف؟ تعال، تعال إلينا ولا تخف! وبعد هذا ذهبتُ لزيارة السيّد علي القاضي»^(١).

«يوم الغدير من وجهة نظر العلامة القاضي»

قال الإمام الرضا عليه السلام: إذا كان يوم القيامة زفّت أربعة أيام إلى الله كما تزفّت العروس إلى خدرها، قيل: ما هذه الأيام؟ قال: يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة ويوم الغدير، وإنّ يوم الغدير بين الأضحى والفطر والجمعة كالقمر بين الكواكب وهو اليوم الذي نجا فيه إبراهيم الخليل من النار فصامه شكراً لله وهو اليوم الذي أكمل الله به الدين في إقامة النبي صلى الله عليه وآله علياً أمير المؤمنين علماً وأبان فضيلته ووضاءته فصام ذلك اليوم وإنّه ليوم الكمال ويوم مرغمة الشيطان ويوم تقبل أعمال الشيعة ومحبي آل محمد وهو اليوم الذي يعمد الله فيه إلى ما عمله المخالفون فيجعله هباءً منثوراً وهو اليوم الذي يأمر جبرائيل عليه السلام أن ينصب كرسيّ كرامة الله بإزاء بيت المعمور ويصعده جبرائيل عليه السلام وتجتمع إليه الملائكة من جميع السموات ويثنون علي ويستغفرون لشيعة أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام ومحبيهم من ولد آدم عليه السلام وهو اليوم الذي يأمر الله فيه الكرام الكاتبين أن يرفعوا القلم عن محبي أهل البيت وشيعتهم ثلاثة أيام من يوم

(١) «الدّعا والتوسّل» للسيد علي أصغر دستغيب، ص ١٩١ - ١٩٢.

الغدير ولا يكتبون عليهم شيئاً من خطاياهم كرامة لمحمد وعليّ والأئمة وهو اليوم الذي جعله الله لمحمد وآله وذوي رحمته وهو اليوم الذي يزيد الله في مال من عبد فيه ووسع على عياله ونفسه وإخوانه ويعتقه الله من النار وهو اليوم الذي يجعل الله فيه سعي الشيعة مشكوراً وذنبهم مغفوراً وعملهم مقبولاً وهو يوم تنفيس الكرب ويوم تحطيط الوزر ويوم الحباء والعطية ويوم نشر العلم ويوم البشارة والعيد الأكبر ويوم يستجاب فيه الدعاء ويوم الموقف العظيم ويوم لبس الثياب ونزع السواد ويوم الشرط المشروط ويوم نفي الغموم ويوم الصّفح عن مذنب شيعة أمير المؤمنين وهو يوم السبقة ويوم إكثار الصلاة على محمد وآل محمد ويوم الرضا ويوم عيد أهل بيت محمد ويوم قبول الأعمال ويوم طلب الزيادة ويوم استراحة المؤمنين ويوم المتاجرة ويوم التودّد ويوم الوصول إلى رحمة الله ويوم التزكية ويوم ترك الكبائر والذنوب ويوم العبادة ويوم تفتير الصائمين فمن فطر فيه صائماً مؤمناً كان كمن أطعم فتاناً وفتاناً إلى أن عد عشرّاً ثم قال أو تدري ما الفئام قال لا قال مائة ألف وهو يوم التهئة يهنّي بعضكم بعضاً فإذا لقي المؤمن أخاه يقول الحمد لله الذي جعلنا من المُتمسّكين بولاية أمير المؤمنين والأئمة عليهم السلام وهو يوم التبسّم في وجوه الناس من أهل الإيمان فمن تبسّم في وجه أخيه يوم الغدير نظر الله إليه يوم القيامة بالرحمة وقضى له ألف حاجة وبني له قصرّاً في الجنّة من درّة بيضاء ونصّر وجهه وهو يوم الزينة فمن تزوّج ليوم الغدير غفر الله له كلّ خطيئة عملها صغيرة أو كبيرة وبعث الله إليه ملائكة يكتبون له الحسنات ويرفعون له الدرجات إلى قابل مثل ذلك اليوم فإن مات مات شهيداً وإن عاش عاش سعيداً ومن أطعم مؤمناً كان كمن أطعم جميع الأنبياء والصدّيقين ومن زار فيه مؤمناً أدخل الله قبره سبعين نوراً ووسّع في قبره ويزور قبره كل يوم

سبعون ألف ملك ويبشرونه بالجنة وفي يوم الغدير عرض الله الولاية على أهل السموات السبع فسبق إليها أهل السماء السابعة فزين بها العرش ثم سبق إليها أهل السماء الرابعة فزينها بالبيت المعمور ثم سبق إليها أهل السماء الدنيا فزينها بالكواكب ثم عرضها على الأرضين فسبقت مكة فزينها بالكعبة ثم سبقت إليها المدينة فزينها بالمصطفى محمد ﷺ ثم سبقت إليها الكوفة فزينها بأمر المؤمنين عليه السلام وعرضها على الجبال فأول جبل أقرّ بذلك ثلاثة أجبل العتيق وجبل الفيروز وجبل الياقوت فصارت هذه الجبال جبالهنّ وأفضل الجواهر ثم سبقت إليها جبال آخر فصارت معادن الذهب والفضة وما لم يقرّ بذلك ولم يقبل صارت لا تنبت شيئاً وعرضت في ذلك اليوم على المياه فما قبل منها صار عذباً وما أنكر صار ملحاً أجاجاً وعرضها في ذلك اليوم على التّبات فما قبلها صار حلواً طيباً وما لم يقبل صار مرّاً ثم عرضها في ذلك اليوم على الطير فمن قبلها صار فصيحاً مصوّتاً وما أنكرها صار أخرس مثل الألكن ومثل المؤمنين في قبولهم ولواء أمير المؤمنين في يوم غدير خم كمثل الملائكة في سجودهم لآدم ومثل من أبى ولاية أمير المؤمنين في يوم الغدير مثل إبليس وفي هذا اليوم أنزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وما بعث الله نبياً إلاّ وكان يوم بعثه مثل يوم الغدير عنده وعرف حرمة إذ نصب لأئمة وصيّاً وخليفةً من بعده في ذلك اليوم^(١).

«العلامة السيّد علي آغا القاضي يستعدّ ليوم الغدير»

يقول السيّد محمد حسن قاضي: «... بمناسبة نقل قصيدته الغديرية إلى أنّه (قدّس سرّه) كان يستعدّ لهذا اليوم، يخرج وعليه أحسن ملابسه

ويهييء للوليمة والحلوى والفواكه ويدعو إلى مجلسه ذويه وصحبه وأهل بيته ومودّته ويطلب من أحدهم أن يقرأ بصوت عالٍ خطبة الرسول الأعظم ﷺ في هذا اليوم وهي من جلائل خطبه، أو ما تيسّر منها ويظهر عليه النشاط والفرح والابتهاج والانبساط ويكثر من إيراد النكت والنوادر الحلوة والتفكّه وإدخال السرور على قلوب المجتمعين وربما قرأ شيئاً من نوادر ما يحفظ من منظوم ومنثور. وكان قد هيمنت عليه الجذبات الوجدانية مرة، فارتجل وعلى البديهة هذه القصيدة الفارسيّة، نقلاً عن أحد أصحابه الذي بادر إلى القلم وأخذ يسجل ما يسمع . . .

شاد باش اي دل كه شاد آمد غدير

هم مخور اندوه كه آيد دير دير . . .»^(١)

«يجب العمل أن يكون خالصاً لوجه الله»

يقول الشيخ الحاج جاسم الأسم: في السنين الأولى من مجيء السيّد آغا - حسب تعبيره - إلى النجف الأشرف وكثرة تردّده على جامع الكوفة والسّهلة معتكفاً أو للتفرّغ للعبادة، كان في وسط الجامع حفرة كبيرة ترمي فيها القمامات وفضلات الموائد، فأشرنا على السيّد آغا أن يعمل على رفعها وتنظيف ساحة الجامع منها. فقام هو بمراجعة بعض الموسرين وتقرّر أن يقام في هذه الحفرة بناء خاص يتناسب وقُدسيّة الجامع وأوكل أمر البناء والإشراف على العمل إلّاي. وبعد شهور تمّ العمل وطلبتُ من السيّد آغا أن يتفضّل ويشاهد العمل المنجز وهو بدوره جاء ورأى السرداب وهذه البنية هي التي تسميها العامة بـ «سفينة نوح» أو «بيت الطشت» ولكلّ واحدة من هذه التسميات مناسبة، فاستحسنه كثيراً

وأثنى على القائمين بالعمل وتفقد البنائين والمعمار الذي أشرف على العمل . وعندما همَّ بالخروج جلبت انتباهه لوحة على باب السرداب تقع على يمين الخارج كتب عليها ما يفيد «أنَّ هذا العمل أُنجز بمساعي فلان» نظراً للمساعي الكثيرة التي كان قد بذلها السيّد آقا في تهيئة الأموال والنقود التي كنّا بحاجة إليها . قلت : وما إن وقعت عينه على هذه اللوحة إلّا وتغيّرت ألوانه وتجهّم وجهه وبدت عليه دلائل الانزعاج والاستياء ، فأخذت بالاعتذار وتوجيه العمل هذا بشتيّ المعاذير ، لكن السيّد الآغا لا يزداد إلّا سخطاً واستنكاراً وتأيّباً ، فاضطرت أن آخذ من يد أحد العمّال فأسأ وأقوم بهدم قطع الكاشي وعملت بيدي جصّاً وساويت المكان على رديف الحائط المجاور له .

وعندما تمّ العمل نظَرَ وإذا به قد تهلّل وجهه وانبسّط أساريره وأخذ بالاستحسان وعاد إلى طبيعته الخاصة وكلامه المتعارف بإرسال النكت اللطيفة .

يقول الحاج جاسم الأعسم : وبعد أيّام من إنجاز العمل نهائياً أدركت أنّ الدعوات الخالصة التي يرسلها المشاهدون للقائمين بهذا العمل هي أفضل بكثير ممّا لو كان اسم شخص معين مكتوباً أمامهم ، فكان هذا درساً بليغاً من السيّد آغا بأنّ العمل يجب أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى .

ويبدو لي أنّ هذا كان في أيام شبابه وفي الدور الذي يواجه الإنسان فيه كثيراً من أمثال هذه الأعمال ، كما تقع أو تنال الرضا من لدن مجموعة الشّباب الذي يريد أن يبنّي لنفسه صرعاً متميّزاً لمستقبل أيّامه^(١) .

نقل السيّد علي أصغر دستغيب الشيرازي عن العارف آية الله نجابت الشيرازي قوله: ذهبت يوماً لعيادة السيّد القاضي بعد نقاهته من وعكة صحية وبعد هنيهة قال: أرى نفسي اليوم تشتهي عدة أشياء: قدراً من الرّز مطبوخاً بالزّعفران مع دجاجة وعباءة من الطراز الفاخر ومبلغاً من المال. قال السيّد ذلك ونحن نعلم بأنّه لا يملك شيئاً من المال. ولم تمض نصف ساعة حتى طرق شخص بابيه وهو يحمل قدر رز مطبوخ بالزّعفران مع دجاجة وأخيراً وخلال نصف ساعة تحقّقت جميع رغباته الواحدة تلو الأخرى^(١).

«العلامة السيّد القاضي سماء»

ويقول آية الله الحسيني الهمداني: «أقيم مجلس الفاتحة بعد وفاة السيّد القاضي ثلاثة أيام متوالية في النجف وحضره كبار العلماء وعلى رأسهم السيّد الخوئي والسيّد مهدي الشيرازي والشيخ حسين القمي. ويقول السيّد أبو القاسم الخوئي: زارني بعد انتهاء المجلس لضيف من العلماء فسألني الشيخ حسين القمي: يقولون إنّ لك علاقة مع السيّد القاضي. فأجبته: إنّ كثيراً من العلماء لهم علائق معه. فقال: كيف كان المرحوم القاضي في نظركم؟ من أي جهة تقصدون؟ فقال: من جهة منزلته المعنوية. فقلت له: تقصدون ما هو مقامه العرفاني والشّهودي؟ فقال: نعم. فقلت له: إذا كان ما رأيناه من المرحوم آية الله القاضي له حقيقة عند الله فهو سماء وأنت أرض وإذا لم يكن له حقيقة فالعكس. فقال الشيخ حسين القمي - وهو في غاية الدهشة والاستغراب -: عجيب!«^(٢).

(١) «الدّعاء والتوسّل» ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) «مجلة الحوزة»، العدد ٣٠، ص ٢٨.

يقول آية الله السيّد محمد الحسيني الهمداني: كنت قد سمعت من والدي الشيء الكثير عن السيّد القاضي قبل أن أتعرف عليه وكنت في سنة ١٣٤٧هـ أو ١٣٤٨هـ ق، في مدرسة القوام في النجف عندما جاء السيّد القاضي وطلب من المتصدّي لسكنى الطلاب في المدرسة أن يهيئ له غرفة للسكن، فاستجاب لطلبه وأعطاه غرفة صغيرة في الطابق العلوي وعلمنا بعد ذلك أنه كان يريد هذه الغرفة مكاناً للخلوّة من أجل التهجّد والعبادة، إذ أنّ بيته الصغير لا يسع عائلته الكبيرة. وعندما كان جميع الطلاب ينامون زهاء الساعة الثانية عشر ليلاً كان السيّد القاضي يبدأ إحياء الليل للتهجّد والعبادة، ومن هنا بدأ حبّي له، فكان دعاؤه ومناجاته في تلك الغرفة الصغيرة جميلاً وجذاباً وكان عندما ينهض أثناء الليل ويمرّ من الممرّ الوسط للوضوء كان يخلع نعليه ويسير بهدوء لئلاّ يطلّع عليه أحد وكنت أسترق السمع إلى لذيذ مناجاته ودعائه إلى الصباح. وكان دعاؤه ومناجاته في تلك الحجرة الصغيرة لذيذاً وجذاباً جداً. وبعد مضي عدة أشهر طلبت منه درساً أخلاقياً في كتاب «جامع السعادات» للنراقي رحمته الله، فقبل ذلك وبدأ بالدرس فعلاً في أوقات فراغي وكان درساً عرفانياً حقيقة، يتيقّن فيه السامع بما يقوله الأستاذ ويجد لكلامه طريقاً إلى نفسه.

ثم مرّت بي على أثر ذلك حالات عجيبة بحيث صار السيّد القاضي كلّ ذكرى ووردي وأهملت بقية دروسي وذهلتُ عنها وأضحى درسه موضع اهتمامي الوحيد وكنت عندما أجلس بين يديه ويبدأ الحديث كنت أنسى كل دروسي وأذوب فيه ولا أفكر طوال النهار بغير كلامه وعندما يستيقظ السيّد أثناء الليل للتهجّد والعبادة كنت أبقى مستيقظاً إلى الصباح أنصت إلى لذيذ دعائه ومناجاته. وشيئاً فشيئاً طرأت تغييرات على صحّتي

بسبب ترك النوم في الليل ولم أعد أعطني بدروسي ، فتنّبّه بعض أصدقائي لحالي ومنهم السيّد يوسف الحكيم الذي كانت تربطني به علاقة وثيقة وذات يوم ذهب إلى آية الله الشيخ محمد حسين الأصفهاني - المعروف بـ «الكمباني» - وكنت أكنّ له احتراماً كبيراً وقلت له : إنّ السيّد القاضي قد سكن غرفة في مدرستنا . فانتبه إلى قولِي وفهم المسألة وقال لي : إنّهُ لمن المبكر جداً أن تذهب إلى درس السيّد القاضي وإنّك لست رجل هذا الميدان بعد وهو رجل عظيم ويحتاج إلى زميل وقرين عظيم مثله ومن الأفضل أن تترك درسه ويكفي حضورك المجالس الأخلاقيّة التي تُعقد في كل أسبوع في بيت السيّد عبد الغفار . فتركتُ درس السيّد القاضي وإنّي لأحسّ إلى الآن بحلاوة ولذّة تلك المدة القصيرة التي قضيتها في درس السيّد القاضي»^(١).

«العَبْقَرِي فِي الْمَعْنَوِيَّة»

يقول آية الله السيّد محمد الحسيني الهمداني : كان السيّد القاضي بحراً مَوْاجاً في العلم والأخلاق والعرفان وكان أكثر أوقاته صامتاً ولا يتكلّم إلّا قليلاً جداً ولكن من عادته أن يبدأ الآخرين بالسلام وكان يكره أن يلفت انتباه الناس إلى وجوده ولذا كان يبتعد عن أماكن ازدحام الناس والتجمّعات العامّة وربما تمضي فترة طويلة لا يراه أحدٌ . وكانت تمرّ الأيام ولا يراه أحد وكان يتهجّد في الليل ويقضي نهاره بالمطالعة أو التفكير . وكانت غالب زيارته لمرقد أمير المؤمنين عليه السلام في الساعة الثانية بعد الظهر ، حيث كان يلتجئ الناس في تلك الساعات في النجف إلى السراييب من شدّة الحر وكان يتعمّد في اختيار هذا الوقت لئلاّ يطلّع عليه

أحد ولهذا السبب لم يكن يراه أحد، لا في الحرم ولا في مكان آخر إلا نادراً. كان السيّد القاضي في رأيي العبقرّي في المعرفة وحالات المعنويّة»^(١).

«بدء تعرّف السيّد الخوئي على السيّد القاضي»

يقول آية الله الشيخ جواد الكربلائي: سمعت قبل عدّة سنين من آية الله العظمى الحاج أبو القاسم الخوئي وقبلها من آية الله العظمى بهجت - مدّ ظلّه -: كان بدء تعرّف السيّد الخوئي على السيّد القاضي عن طريق الشيخ البهجت حينما كان يحضر بحث السيّد الخوئي في أصول الفقه مبحث «استعمال اللفظ في أكثر من معنى» يستلزم اجتماع لحاظين آلي واستقلالي في إطلاق واحد اللفظ وهو مُحال. فقال الشيخ بهجت - وكان في سني الأولى - للسيّد الخوئي: أنّه من الممكن أن تصل نفس الإنسان إلى درجة من القوّة تستطيع أن تجمع كلا اللَّحَاطَيْن. وكان قد تكلم بهذا الكلام ليثير انتباه أستاذه إلى وجوب تحصيل المعارف الإلهية ولم يدع السيّد الخوئي الموضوع يمرّ هكذا، بل استوضح تلميذه عن حقيقة المطلوب وسأله عمّن يراجع في هذا الموضوع، فعرّف بالسيّد القاضي ورّتب اللقاء الأول بينهما في صح نأبي الفضل العباس عليه السلام في كربلاء وحيث استمرّ ساعة ونصف.

وبعدها قال لي السيّد الخوئي (والحديث للكربلائي): لقد استسلمتُ لهم وقبلتُ كلامهم وقد أملى عليّ السيّد القاضي برامج وشروطاً خاصّة للذكر - بملا بس خاصّة وذكر خاص يجب أن يُكرّر بدفعات معيّنة - فهيئت جميع الشرائط وصممت على البدء في الساعة الثانية بعد الظهر في مكان

مناسب وخالٍ في حرم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وعندما جلست نحو القبلة وأردت الشروع نسيت الذكر الذي أعطانيه وكلّما حاولت أن أتذكّر ذلك لم أستطع، فيئست وقلت في نفسي: يا أبا القاسم! إنّ أهل البيت لا يريدونك لهذا العمل وقد كان الذكر هو: «لا إله إلاّ هو وعلى الله فليتوكّل المؤمنون»^(١) و^(٢).

«نورٌ في الظلمة»

قال الأستاذ الصدوق سُها: سمعتُ من شيخنا الأستاذ عمدة الحكماء الراشدين الشيخ محمد حسين الخراساني - أفاض الله علينا من بركاته الشريفة - والذي كان ملازماً للسيد القاضي سنوات طويلة، يقول: كان للسيد القاضي مجلساً أخلاقياً في الليالي وكان لا يشغل فيه ضياء، فكان يحضره بعض علماء النجف الأشرف من أهل الباطن يستترون بظلمة الليل وكان أغلب حديثه في هذا المجلس عن معرفة النفس وتهذيب الأخلاق وكان يتحدث أيضاً في العرفان، ولكن كان أكثره في معرفة ذات الإنسان ومعرفة النفس وكان إذا دخل شخص غريب إلى المجلس غير حديثه وتكلّم حول زيارة الحسين عليه السلام وكان يقول: إنّ الاستعدادات مختلفة ولا يمكن قول كلّ كلام لأي شخص^(٣).

«مواعظ المرحوم السيد القاضي للمرحوم محمد تقي الآملي»

يقول العلامة آية الله السيد محمد حسين الطهراني رحمته الله: «ولقد نقل الكثير من تلامذة المرحوم آية الحقّ، آية الله العظمى الحاج الميرزا عليّ

(١) مقتبسة من الآية ١٣ من سورة التّغابن (٤٢).

(٢) «ورقٌ من دفتر الشمس» ص ٤٤-٤٥.

(٣) «تاريخ الحكماء والعرفاء» ص ١٢١.

القاضي - رضوان الله عليه - أنه كان كثيراً ما يذهب إلى «وادي السلام» في النجف لزيارة أهل القبور وكانت زيارته تستغرق ساعتين أو ثلاثاً أو أربع ساعات وكان يجلس في زاوية ما ساكناً، حتى يملّ تلامذته فيعودون ويقولون في أنفسهم: إن الأستاذ عوالمه التي تجعله يجلس ساكناً هكذا لا يملّ ولا يكلّ! وكان هناك عالم جليل ومتميّ في طهران، هو المرحوم آية الله الحاج الشيخ محمد تقى الآملى رحمة الله عليه وكان امرءً حسناً حقاً وهو من تلامذة الدورة الأولى للمرحوم القاضي في الأخلاق والعرفان.

وقد نُقل عنه أنه قال: كنت أشاهد لمدة أن المرحوم القاضي كان يجلس في وادي السلام ساعتين أو ثلاثاً وكنتُ أقول في نفسي: على الإنسان أن يزور ويدخل السرور بقراءة الفاتحة على أرواح الموتى ثم ينصرف، فهناك أعمال أكثر أهمية وضرورة ينبغي فعلها.

كان هذا الإشكال يعتمل في قلبي، إلا أنني كنت لم أظهره لأحد، حتى لأقرب، أخلص رفقائي من تلامذة الأستاذ.

ومرّت مدة كنتُ أذهب خلالها إلى الأستاذ للإفادة من محضره، ثم صممتُ على العودة من النجف الأشرف إلى إيران، إلا أنني كنتُ متردداً في مدى صلاح هذا السفر وكانت هذه النية تعتمل في ذهني أيضاً ولم يكن لأحد علمٌ بها. حتى جاءت ليلة وكنت أريد النوم. وكان في الغرفة التي كنت فيها رفّت للكتب إلى الأسفل من قدميّ، يضمّ كتباً علمية ودينية. وبالطبع فقد كانت أقدامي ستّجه عند النوم تجاه تلك الكتب، فقلّت في نفسي: هل أنهض وأغيّر محلّ نومي أم أنّ ذلك ليس ضرورياً، فالكتب ليست مقابل قدمي تماماً وهي أعلى من مستوى قدميّ، فلا يتحقّق هتك، لاحترام الكتب.

وهكذا بقيتُ في تردّدي وحديثي مع نفسي، ثم إنني اعتبرت أن لا هتك هناك فتمتُ على تلك الحال.

وحلّ الصباح فذهبتُ إلى محضر الأستاذ المرحوم القاضي وسلّمتُ فردّ: عليكم السلام، ليس في صلاحكم أن تذهبوا إلى إيران كما أنّ مدّ الأرجل تجاه الكتب هتك للاحترام! فقلتُ مأخوذاً دون شعور: من أين عرفتم أيها السيّد؟! من عرفتم؟! فقال: عرفته من وادي السّلام! (١).

«تعالوا يا موحدي التوحيد الأفعالي»

يقول العلامة سيد محمد حسين الطباطبائي رَحِمَهُ اللهُ: «وقد حصل للمرحوم القاضي حادثة أخرى حضرتها وشاهدتها بأمّ عيني وبيانها كالآتي: كان لأحد أصدقاء المرحوم القاضي حجرة في مدرسة الهنديّ البخارائيّ المعروفة في النجف الأشرف وكان قد سافر وأوكل حجرته إلى المرحوم القاضي ليستفيد منها في الجلوس والنوم وسائر احتياجاته.

وكان المرحوم القاضي يأتي إلى تلك الغرفة نهاراً قرب الغروب، كما كان رفقاؤه يأتون كذلك فيقيمون صلاة الجماعة. وكان مجموع التلامذة يتراوح بين سبعة إلى عشرة أشخاص. ثم يجلس المرحوم القاضي إلى ما بعد ساعتين من الليل وكانت المذكرات تقام، فيطرح التلامذة أسئلتهم ويستفيدون منه.

وحصل أن كُنّا في أحد الأيام جالسين في الحجرة وكان المرحوم القاضي جالساً أيضاً، فشرع بالكلام عن التوحيد الأفعالي بحرارة وكان منهمكاً بالحديث عن التوحيد الأفعاليّ وبيانه بصورة موجّهة لإثباته، حين بدأ أنّ السقف قد انهيار. وكان في أحد طرفي الغرفة مدخنة للمدفأة، فبدأ

من هناك صوت كمثل القرقعة، ثم حصل انهيار مع جلبة وصخب
وتصاعد الغبار فملاً فضاء الحجرة. فنهض التلامذة والسادة الحاضرون
بأجمعهم وأنا معهم واتّجهت إلى باب الحجرة فرأيت التلامذة مزدحمين
بأجمعهم وكلّ منهم يدفع الآخر إلى الوراء من أجل أن يخرج من الغرفة.
ثم اتّضح في تلك الحال أنّ الأمر ليس كذلك وأنّ السقف لم يتهدّم
فعدنا وجلسنا بأجمعنا كلاً في مكانه. أمّا المرحوم السيّد (القاضي) فظلّ
جالساً في موضعه دون أن يتحرّك قيد أنملة ولم تصدر منه أدنى حركة مع
أنّ ذلك التصدّع قد بدأ من فوق رأسه.

وعندما جلسنا قال: تعالوا يا موحدي التوحيد الأفعالي! نعم، كان
جميع التلامذة مرتبكين لا يحIRON جواباً. وهكذا جلسنا مدّة، حتى أنهى
بياناته التي تفضّل بها حول التوحيد الأفعالي.

أجل، لقد امتحنّا في ذلك اليوم بالدرس الذي كنّا نتعلّمه.

وفيما بعد علمنا أنّ هذه المدرسة كانت متّصلة بمدرسة أخرى بحيث
إن حجرات هذه المدرسة تقابل حجرات المدرسة الأخرى ولا يفصلهما
عن بعض إلّا حائط واحد. وكان سقف الحجرة المقابلة لحجرتنا قد
تصدّع وانهدم ولأنّ السقفين كانا متّصلين عن طريق مدخنة المدفأة، لهذا
سمعنا هذا الصوت وامتلات الحجرة بذلك الغبار الكثيف. أجل، هكذا
مررنا في الامتحان»^(١).

«فناء في التوحيد»

يقول العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي رحمته الله: «وكان النجفيون
ينقلون عنه حادثة، لا ينحصر ذلك في واحد أو اثنين منهم، بل يتعدّى

الأمر . وقد سأله عنها بنفسى فصدها . فقد كان المرحوم القاضي مريضاً وكان جالساً في إيوان المنزل الذي كان يسكنه وكان ي شكواً آلاماً في رجليه بحيث فقدت رجلاه القابلية على الحركة والانشاء . وكان هناك في تلك الأثناء حرب دائرة في النجف الأشرف بين طائفتي « الزكّرت والشمّرت ؛ وكان أولئك قد تحصّنوا فوق سطوح المنازل يترامون من فوقها . فكانت الحرب دائرة بين هذا الطرف من المدينة وطرفها الآخر . ثم رجحت كفّة الزكّرت ، فأجلوا طائفة الشمّرت وردّوهم على أعقابهم ، فكانوا في تقدّمهم يحتلّون المنازل والسطوح الواحد بعد الآخر .

وكانت جماعة من طائفة الشمّرت قد تحصّنت فوق سطح داره واستخدمته في رمي الزكّرت ، فلمّا تغلّبت طائفة الزكّرت جاء رجالها إلى هذا السطح فقتلوا رجلين من الشمّرتيّين ؛ وكان المرحوم القاضي جالساً في الأيوان يتفرّج . ولمّا احتلّ الزكّرتيّون السطح وتراجع الشمّرتيّون عنه ، نزل الزكّرتيّون إلى ساحة البيت واحتلّوا البيت وقتلوا اثنين آخرين من الشمّرتيّين في الأيوان واثنين آخرين في ساحة البيت ، فصار مجموع قتلهم ستة أشخاص .

وكان المرحوم القاضي يقول : حين قتلوا ذينك الشخصين فوق السطح ، فقد كان الدم يتدفّق من الميزاب إلى الأسفل ، كالمطر وكنت جالساً في مكاني دون أن أقوم بحركة . ثم إن الكثير من الزكّرتيّين تدفّقوا في غرف منزله فجمعوا كلّ ما يصلح للاستفادة منه ونهبوه .

واللطيف في هذا المقام أنّ المرحوم القاضي كان يقول : لم أتحرّك وبقيت جالساً على حالتي السابقة وأنا أتأمل .

ويقول : كان الدم يتدفّق من الميزاب وكان هناك قتيلان في الأيوان وقيتان آخران ملقيان في ساحة البيت وأنا أتفرّج .

وهذه الحالات يُقال لها فناء في التوحيد، حيث إنّ السالك لا يرى حينذاك شيئاً غير الله تعالى، فهو يشاهد جميع الحركات والأفعال، يشاهدها تجلّ للحقّ^(١).

«أين القاضي؟»

سأل العلامة سيد محمد حسين الطهراني عن العلامة الطباطبائي رحمته الله: هل كان المرحوم القاضي رضوان الله عليه يذكر هذه المقولات التوحيدية في مجالسه لأحد من تلامذته وإخوانه الخواصّ؟

لقد كان المرحوم القاضي رجلاً حقّاً كالطود الشامخ وكان حيويّاً، له سعة واسعة وذكاء خارقاً ولكنّ بعض تلامذته الذين كانوا يترددون عليه بعد اثنتي عشرة سنة من المراودة والدراسة لا يعلمون شيئاً عن التّوحيد حتى بقوا في عوالم الكثرات ولا أدري هل كان يداريهم ويسارهم إلى أن رحل آية الحقّ هذا عن الدّنيا؟!

ولكنّ بعض التلامذة على عكس ذلك، كانوا يتزوّدون بسرعة من المعارف الإلهيّة والمعرفة بالأسماء والصفات وتوحيد ذات الحقّ.

قال العلامة الطباطبائي: أجل، كان المرحوم القاضي يذكر تلك الأمور لبعض طلابه الذين يمكن الاعتماد عليهم إلى حدّ ما وبالفعل فإنّه كان رجلاً عجيّباً، يتصرّف مع كلّ واحد من تلامذته حسب استعدادته وحالاته.

فالأشخاص متفاوتون، فبعضهم أسرع رُشداً والبعض الآخر بطيء التّمو.

وفي الأحوال العادية كان المرحوم القاضي يتواجد معظم أيام الشهر عشرة أو عشرين يوماً ويزوره الرفقاء ويتباحثون معه، ثم يختفي فجأة لعدة أيام لا يعلم أين هو ولا يتمكن من الوصول إليه، لا في البيت ولا في المدرسة أو المسجد أو الكوفة أو السهلة أو أي مكان آخر وكانت أسرته لا تعلم أين هو وإلى أين ذهب. وكان الرفقاء يبحثون عنه في أي مكان يمكن مشاهدته فيه ولكن دون جدوى، ثم يعود مجدداً للظهور وكان يقيم الجلسات الخاصة في منزله وفي المدرسة وهكذا كانت له حالات عجيبة وغريبة»^(١).

«مكاشفة للمرحوم السيّد أبو القاسم الخوئي»

قال السيّد نعمة الله الحسيني: سمعتُ آية الله السيّد حسين القاضي ينقل عن آية الله العظمى السيّد أبو القاسم الخوئي قوله: عندما كنتُ في النجف مشغولاً بتحصيل العلوم الدينية كنتُ ملتزماً بالآداب والسنن والأوراد والأذكار، وكنت أحضر أحياناً المجالس الأخلاقية المباركة للمرحوم آية الله السيّد علي القاضي (قدّس سرّه)، وأنفع من أنفاسه القدسيّة، إلى أن قلت له يوماً: علّمني شيئاً أعمل به، بذلك، بل لترددي في مدى قيمة الأعمال التي أفعّلها حتى أسهم أبي فيها، فلم أكن لأرى في نفسي القابليّة واللياقة في الخدمة.

وكان يقول: وصلت رسالة أخي بيدي، فانفعلت كثيراً وغمرني الخجل، فقلت: يا إلهي! إن كان تفسيري مقبولاً لديك ومستحقاً للثواب فإنّي أهدي ثوابه إلى روح أبي وأمي.

ولم أكن قد أرسلت إلى تبريز بعد جواب رسالة أخي لأعمله بهذا

الأمر، حين وصلت بعد أيام رسالة من أخي يقول فيها: لقد أحضرنا روح المرحوم السيّد القاضي فيقول: قال أبيكم رضيّت من السيّد محمد حسين وكان أبيكم مسروراً لشراكمته في ثواب التفسير. كان يقول العلامة الطباطبائي: لم يعلم أحدٌ من إهداء ثواب التفسير لوالدي^(١)!

«كان القاضي غارقاً في بحر التوكّل»

قال العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي رحمته الله: كان المرحوم القاضي آية رائدة في العمل ويروي أهل النجف عنه خصوصاً أهل العلم منهم قصصاً عديدة، فقد كان يعيش في منتهى الفقر والفاقة مع عائلة كبيرة جداً. لكنّه كان غارقاً في بحر التوكّل والتسليم والتفويض والتوحيد إلى الدرجة التي لم تخرجه هذه العائلة عن ميسره بقدر شهرة واحدة.

نقل آية الله الأحمدى الميانجي عن العلامة الطباطبائي رحمته الله: كنت يوماً في حاجة شديدة إلى المال فذهبتُ إلى السيّد القاضي لأقترض منه مبلغاً من المال أتقوّت به إلى أن يصلني من تبريز مال أفي به ديني. وأتفق وصولي إلى مع وصولي ولده من الكوفة - ونحن في النجف - فقال له: إنّ أمّي قد ولدت ونحن بحاجة إلى مقدار من المال، فمدّ السيّد القاضي يده في جيبه ثم قال: ليس في جيبى - كما ترى - شيئاً من المال. فقال ولده: أعطنا عدّة من السجائر على الأقلّ بدفعها للقبالة. فأجابه: إنّى لا أملك ذلك أيضاً. وهكذا طوى السيّد القاضي حياته بهدوء وطمأنينة تأمين بنحو كان محلاً لتعجبنا.

يقول العلامة السيّد محمد حسين الطهراني: «... المرحوم القاضي رضوان الله عليه، فرغم أنّه يعيش مع عائلة كبيرة في النجف الأشرف، إلّا

أنّ الصعوبات والضائقة الشديدة التي كان يعانيها أصبحت قصصها مضرِباً
للأمثال عندنا . فلم يكن في بيته سوى حصير واحد مصنوع من سعف
النخيل . وما أكثر الليالي التي قضاها في الظلام الدامس ، لأنّه لم يكن
يتملّك وقوداً للإضاءة أو لعدم وجود مصباح أو محروقات»^(١) .

«وصية القاضي للطباطبائي كانت تهذيب النّفس»

ينقل آية الله الشيخ إبراهيم الأميني عن أستاذه العلامة السيّد محمد
حسين الطباطبائي عن لقائه الأوّل مع السيّد العلامة القاضي : عندما
قدمتُ النجف الأشرف لدراسة العلم الدينيّة لم أكن أعرف شيئاً عن وضع
النجف ، ولا أدري أين أذهب وماذا أعمل ، وكنتُ أفكر أثناء طريقي من
تبريز إلى النجف ماذا أدرسُ وعلى أيّ أستاذ أتلمذ وأيّ طريق أختار
ليكون مرضياً عند الله سبحانه وحينما دخلت النجف ولاحت لي قبة
المرقد الطاهر لأمير المؤمنين (عليه السلام) وقفتُ في مقابلها وخاطبته قائلاً : يا
علي ، إنني جئتُ إلى هنا لإكمال دراسة العلوم الدينية ، ولكنّي لا أعلم أيّ
طريق أسلكُ وأيّ برنامج أختار ، وأطلب منك أن تهديني لما فيه
صلاح . ثم استأجرتُ منزلاً وسكنتُ فيه ، وكنت في الأيام الأولى وقبل
اشتراك في حلقات الدّرس جالساً أفكر في مستقبلي ، فطرق الباب ،
وعندما فتحت الباب وجدتُ أمامي عالماً كبيراً ، فسلم عليّ ودخل الدار
وجلس في الغرفة ، فرحبت به ، وكان ذو وجه جذّاب ونوراني ، وتحدّث
معني بصفاء وإخلاص ، وأنس بي وقرأ لي في ضمن حديثه أشعاراً ، وقال
لي كلاماً مضمونه أنّ مَنْ جاء إلى النجف للدراسة فمن المستحسن أن
يهتمّ أيضاً بتهذيب نفسه وتكميلها وعدم الغفلة عنها إضافة إلى طلب

العلم، قال هذا ثم ذهب . ومنذ ذلك الحين عشقتُ أخلاق هذا الرجل وسلوكه الإسلامي، وقد ترك الحديث القصير لهذا العالم الربّاني أثراً في قلبي اتّضح به أمامي برنامجي المستقبلي، ووظبت الحضور عند هذا العالم التّقي ما دمتُ في النجف وشاركت في الأخلاقيّة وانتفعت من الجلوس عنده . وهذا العامل الكبير هو السيّد علي القاضي^(١) .

«مُتْ بِإِذْنِ اللَّهِ»

يقول العلامة محمد حسين الطهراني رحمته الله: نقل بعض رفقاءنا وأصدقائنا النجفيين عن أحد كبار رجال العلم والمدرّسين في النجف الأشرف أنّه قال: كنتُ في شكّ في أمر المرحوم أستاذ العلماء العاملين، وقدوة أهل الحقّ واليقين والسيّد الأعظم والسند الأفخم وطود أسرار ربّ العالمين الحاج الميرزا علي آقا القاضي الطباطبائي - رضوان الله عليه - وبشأن أحواله التي تطرّق سمعي والمطالب التي تنقل عنه أحياناً .

وكنت أتساءل: أصحيح أنّه يمتلك هذه الأمور أم لا؟ أو صحيح أنّ هؤلاء التلامذة الذين يقوم بتربيتهم يمتلكون كذا وكذا من الحالات والملكات والكمالات أم أنّ ذلك أمر وهمي؟

ظلّ هذا الأمر حديث نفسي لمُدّة من الزمن . ولم يكن لأحد علم بذلك، حتّى ذهبتُ يوماً إلى مسجد الكوفة لأداء الصلاة والعبادة، ولأداء بعض الأعمال التي وردت لذلك المسجد وكان المرحوم القاضي - رضوان الله عليه - كثيراً ما يذهب إلى مسجد الكوفة، وكان له حجرة خاصة لعبادة هناك، وكان له تعلق خاصّ بهذا المسجد وبمسجد السهلة، فكان يقضي فيهما الكثير من الليالي ساهراً في العبادة إلى الصباح .

(١) ذكرى العلامة الطباطبائي، ص ١٢٠، الشفق، قم.

يقول: التقيت بالمرحوم القاضي - رحمة الله عليه - يحكي قصصاً وحكايات عن الأسرار والآيات الإلهية، وبيتين مطالب عن مقام جلالة التوحيد وعظمته وعن السير في هذا الطريق، وفي أنه الهدف الوحيد من خلق الإنسان، وقيم الأدلة على هذا الأمر.

ولقد حدثني نفسي آنذاك فقلت: إننا فعلاً في شك وشبهة لا نعلم ما الأمر، وإذا ما انقضى العمر على هذا المنوال، فلنا الويل إن تبين أن هناك حقيقة ما لم ندرسها، الويل لنا عندئذ. ولكننا - من جهة أخرى - لا نعلم أصواب ذلك الأمر لتبّعه أم أنه ليس صواباً.

وفي هذه الأثناء خرجت حيّة من الجدران وانسابت أمامنا تسير بمحاذاة جدار المسجد؛ وكانت الأفاعي كثيرة في تلك المناطق بحيث يشاهدها أغلب الأهالي، بيد أنه لم يُسمع أنها لدغت أحداً حتى الآن.

وحالما وصلت الحية أمامنا وكنّت في فزع منها، أشار المرحوم القاضي - رضوان الله عليه - إليها وقال: مُت بِإِذْنِ اللَّهِ! فتبيّست الحية في مكانها ميتة. ثم عاد المرحوم القاضي - رضوان الله عليه - إلى الحديث الذي كان يدور بيننا بدون أن يلقي اهتماماً للأمر، ثم نهضنا وذهبنا داخل المسجد فصلّى المرحوم القاضي ركعتين في وسط المسجد ثم ذهب إلى غرفته، وكنّت أقوم ببعض أعمال المسجد على أن أعود إلى النجف الأشرف بعد إكمالها. وأثناء تلك الأعمال خطر في خاطري سؤال: أكان هذا العمل الذي اجترحه هذا الرجل واقعياً أم تمويهاً وخداعاً للعين كالسحر الذي يفعله السحرة؟ من الحريّ أن أذهب فأرى هل أنّ الحية ميتة حقاً أم أنّها عادت إلى الحياة وهربت.

كان هذا الخاطر يهاجمني بشدة حتى أنهيت الأعمال التي قرّرت

القيام بها وخرجت على الفور من المسجد نحو المكان الذي جلست فيه مع المرحوم القاضي - رضوان الله عليه - فشاهدت الحية متيِّسةً لملقاةً على الأرض، ثم ركلتها بقدمي فرأيتُ أن لا حراك فيها أبداً.

عدتُ إلى المسجد وأنا في غاية التأثر والخجل لأصلي عدة ركعات أخرى فلم أقدر على ذلك، فقد تملّكني هذا التفكير: إن كانت هذه المسائل أموراً حقيقية فلمَ لم نلتفت إليها أبداً؟

كان المرحوم القاضي - رحمة الله عليه - مدّة في حجرته مشغولاً بالعبادة، ثم خرج منها وغادر المسجد متّجهاً إلى النجف، فخرجتُ أنا الآخر والتقينا من جديد عند باب المسجد، فتبسّم ذلك المرحوم في وجهي وقال: حسناً، امتحنت الأمر أيضاً أيها العزيز! امتحنته أيضاً؟

بلى، لقد تحقّق هذا العمل بواسطة اسم المُميت من أسماء الله تعالى فتَمَّ قبض الروح بواسطته^(١).

«إِنَّ كُلَّ مَا لَدِينَا فَهُوَ مِنَ الْمَرْحُومِ الْقَاضِي»

يقول آية الله الشيخ جعفر السبحاني: «كان المرحوم الحاج الميرزا علي القاضي . . . في تهذيب النفس والأخلاق والسير والسلوك - في حوزة العلميّة النجف - فريد عصره ووحيد دهره ويؤمن تربيته استطاع جمع كثير أن يدخلوا في دائرة التكامل وأن يصبحوا من سُكّان دار الخلد ومَحارم حريم القرب ومن جملة تلامذته أستاذنا المرحوم الفقيه العلامة الطباطبائي كان يقول: إِنَّ كُلَّ مَا لَدِينَا فَهُوَ مِنَ الْمَرْحُومِ الْقَاضِي، سواء ما أخذناه في حياته أو المنهج الذي خَلّفه لنا وُسّرنا على هداة»^(٢).

(١) معرفة المعاد، ١/ ١٧٥ - ١٧٨.

(٢) ذكرى العلامة الطباطبائي، ص ٤٢، الشفق، قم.

«برنامج المرحوم القاضي في شهر رمضان»

لقد كان المرحوم القاضي من المجتهدين العظام ولكنه كان ملتزماً بالتدريس في بيته وقد درّس دورات عديدة في الفقه وكان يقيم صلاة الجماعة بطلّابه في بيته، فكانت صلاته في غاية السكينة وتستغرق وقتاً طويلاً. وبعد صلاة المغرب التي كان يقيمها عند أوّل استتار الشمس تحت الأفق، كان يواظب على التعقيبات حتى وقت العشاء حيث يقوم للصلاة ليستغرق فيها طويلاً.

كان الطّلاب في شهر رمضان المبارك يأتون لإدراك صلاة المغرب جماعة معه ولأنّ البعض منهم لم يكن يصلّي قبل ذهاب الحمرة المشرقيّة من جهة الرأس، كان يطلبون منه أن يتمهّل قليلاً وكان يقبل، ولكنّ السماور كان مجهّزاً، فبمجرّد استتار القرص كان المرحوم يبادر إلى الإفطار.

في الأيام العشرين الأوّل من شهر رمضان، كانت الليالي تتحوّل إلى مجالس التعليم والأنس وكان الطّلاب يحضرون مجلسه بعد مرور أربع ساعات من الليل ليطول جلوسهم إلى ساعتين إضافيتين. أمّا في العشر الأواخر من الشهر، فقد كان المرحوم يوقف التدريس ويغيب عن الأنظار حتى آخر الشهر المبارك؛ ومهما كان الطّلاب يبحثون عنه في النجف وفي مسجد الكوفة وفي مسجد السهلة أو في كربلاء لم يكونوا ليعثروا له على أيّ أثر. وكان هذا نهج المرحوم طوال سنواته حتّى رحيله^(١).

«عليك بصلاة الليل»

كان العلامة الأستاذ [الطباطبائي] يقول: عندما تشرفّت بالذهاب إلى

النجم الأشرف للدراسة، كنت من حين لآخر أزور المرحوم القاضي للقرابة والرحمة الموجودة بيننا حتى جاء ذلك اليوم الذي كنت فيه واقفاً على باب المدرسة والتقيت به عابراً، فلما وصل إليّ وضع يده على كتفي وقال: «يا بُنَيَّ! إذا كنت تريد الدنيا فعليك بصلاة الليل وإذا كنت تريد الآخرة فعليك بصلاة الليل!».

ولقد أثر فيّ هذا الكلام إلى الدرجة التي جعلتني لا أترك محضره طوال خمس سنوات حتى رجوعي إلى إيران؛ ولم أفترط بلحظة واحدة استطعت فيها أن أستفيد من فيضه. وقد تأصّرت علاقاتنا منذ رجوعي إلى الوطن حتى رحيله وكان يلقي عليّ تعاليمه وإرشاداته كأستاذ مع تلميذه، وكنا نراسل بعضنا البعض^(١).

«نصيحة آية الله المجدّد الشيرازي للسيد حسين القاضي»

قال آية الله الشيخ حسن حسن زاده الأملي - نقلاً عن العلامة الطباطبائي رحمته الله -: استفاد المرحوم القاضي من الأساتذ الكثر - ذكر عدّة منهم - حتى يقول: والده هو المرحوم الحاج الميرزا حسين القاضي وله تفسير في سورة الفاتحة وسورة الأنعام وأنا رأيت الكتابين لكنّ لا أدري الآن في تملّك من؟ ويقول العلامة الطباطبائي أيضاً: كان الحاجّ الميرزا حسين القاضي من تلامذة المرحوم المجدّد آية الله الميرزا محمد حسن الشيرازي، وأنّ المرحوم السيّد الميرزا حسين القاضي كان عندما همّ بالرجوع من سامراء إلى تبريز - مسقط رأسه في آذربيجان - حضر عند المرحوم الميرزا الشيرازي فأوصاه وقدم له نصيحة قائلاً: اجعل نفسك في كلّ يوم ساعة واحدة!

وبعد أيام سأل آية الله الشيرازي من أفراد أخرى عن أحوال السيّد حسين القاضي، فقالوا: إنّ تلك الساعة التي نصحته بها قد سيطرت على جميع أوقاته وهو لا يترك مناجاة ربّه في الليل والنّهار، وكان دائماً في المراقبة والحضور والعزلة!

يقول آية الله الشيخ مرتضى الحائري رحمته الله: حدّثني المرحوم السيّد محمد حسن الشيرازي حفيد الميرزا الشيرازي الكبير قال: كان السيّد حسين القاضي من تلامذة السيّد الميرزا في النجف الأشرف قبل هجرته إلى سامراء وكان أهالي تبريز يطلبونه بالراح للإرشاد في بلدتهم وعندما قرر الاستجابة لهم جاء إلى أستاذه السيّد الشيرازي قائلاً: لقد مضى زمن التعليم وأريد الآن قانوناً لتكميل النفس وتهذيبها فقال السيّد الشيرازي الكبير (قدّس سرّه): خصّص وقتاً كل ليلة للتفكير فيما جرى في يومك الماضي فكر في النعم الإلهيّة التي وهبك الله إيّاها فأشكره عليها وفي البلايا التي دفعها عنك بلطفه ورحمته وفي الذّنوب التي ارتكبتها فتب منها واستغفر الله سبحانه حتى تستطيع بالاستمرار إن شاء الله تحقيق الارتباط به سبحانه وتكون ناظراً في أعمالك إلى قدرته وقيوميته وإحاطته وليس عندي أفضل من هذا العمل.

يقول [محدّثي] إنّ السيّد القاضي واطب على العمل بنصيحة السيّد لعدّة سنوات ثم أرسل إليه رسالة يقول فيها: إنّ بركة نصيحتكم لا زالت في فكري.

[يقول المؤلف] حدّثني السيّد حسين القاضي حفيد السيّد القاضي المذكور (وكان من خيار السادة وزهادهم ومن أصدقائنا الأعزاء): أنّ السيّد الجدّ كان يخمن حاجات النّاس ويستكشف ما في ضمائرهم ويتمتّع

بروحانية عالية ولم تكن نعرف المنبع الذي كان يستقي منه مع أنه ظاهراً لم يكن ذا مسؤولية في الروحانية^(١).

يقول العلامة الطهراني رحمه الله: لقد كان أستاذنا [العلامة الطباطبائي] يحمل في قلبه عشقاً شديداً لأستاذه وحقاً كان يرى نفسه صغيراً أمامه ويلمس في سيماء المرحوم القاضي عالماً من العظمة والبهاء وأسرار التوحيد والملكات والمقامات. في أحد الأيام قدّمتُ له عطراً، فحمله بيده وقال بعد تأمل: لقد رحل أستاذنا المرحوم القاضي منذ سنتين ومنذ ذلك الحين لم أطيّب حتى الآن. وإلى الفترة الأخيرة أيضاً كنت كلما قدّمتُ له عطراً كان يفلقه ويضعه في جيبه. ولمأره قد تعطر رغم انقضاء أكثر من ٣٦ سنة على وفاة أستاذه.

والمدهش تساوي عمر العلامة مع أستاذه القاضي، فقد عاش كل منهما ٨١ سنة^(٢).

إطلاق «الأستاذ» لائق له

كان المرحوم القاضي من أبناء أعمام العلامة [الطباطبائي] حيث عمل في النجف الأشرف على تربية التلامذة الإلهيين والصالحين والعاشقين للجمال الإلهي والمشتاقين للقاء وزيارة حضرة الأحديّة، حتى صار في هذا الفنّ العالم الوحيد وكان العلامة يطلق لقب «الأستاذ» عليه فقط وعندما كان يقول «الأستاذ» بدون قيد فهو يقصد المرحوم القاضي وكأنّ جميع الأساتذة الآخرين يخفون أمام وجود ذلك المقام والعظمة العلمية.

(١) سرّ دلبران، ص ١٠٧؛ «والذي آية الله العظمى الشيخ عبد الكريم الحائري وقصص أخرى». ص ٤٥.

(٢) الشمس الساطعة، ص ٢٣.

أمّا في المجالس العلّامة، فإذا جاء الحديث عن أساتذته، فلم يكن يذكر اسم «القاضي» من شدّة الاحترام ولم يكن يذكره إلى جانب البقية من الأساتذة كما نلاحظ في المقالة الوجيزة التي كتبها عن حياته ونشرت في مقدّمة مجموعة المقالات والرسائل التي طبعت تحت عنوان «دراسات إسلامية» فلم يذكر اسم المرحوم القاضي إلى جانب الأساتذة^(١).

«امتناع عن مشاركة في الشّهرة إجلالاً لمقام الأستاذ»

يقول العلّامة الطهراني رحمته الله: كان سماحة العلّامة الطباطبائي يُعرف باسم القاضي بدء قدومه إلى قم، لأنّه من سلسلة السادة «القاضي» المشهورين في آذربيجان ولكن باعتباره من السادة الطباطبائيين فقد رجّح بنفسه أن يُعرف بالطباطبائي. وقد انكشف للحقير أخيراً أنّه ربما شاء أن ينحصر لقب القاضي بأستاذه الأكرم الأوحد المرحوم الحاج السيّد عليّ آقاي القاضي وأنّه امتنع عن مشاركته في الشّهرة تكريماً وإجلالاً لمقام الأستاذ^(٢).

«كان القاضي يوصي تلاميذه بقراءة هذا الدّعاء»

يقول العلّامة الطهراني رحمته الله: «من جملة الأدعية التي تذكر في القنوت في الصلوات الواجبة والنوافل وأولها: «اللّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَا تُحِبُّهُ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي إِلَى حُبِّكَ وَأَجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيَّ». جاء كامل هذا الدّعاء في بحر المعارف ص ٣٠٩، حيث نُسبَ جزء منه إلى الرّسول ونُسبَ الجزء الآخر إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

وورد قسم من الدّعاء كذلك في المجموعة المطبوعة الصغيرة للحاج

(١) الشمس الساطعة، ص ٢١.

(٢) الشمس الساطعة، ص ١٣.

ملاً محمد جعفر كبودر آهنگي . وكان آية عظماء الحقّ المرحوم الحاجّ ميرزا السيّد علي آقا القاضي - تغمّده الله برضوانه - يوصي تلاميذه بقراءة هذا الدّعاء في قنوت صلواتهم . . . »^(١) .

«آثار كلمات المرحوم القاضي»

كان يقول (السيّد هاشم الحدّاد) مثلاً: لم أنظر طوال مدة السلوك في خدمة المرحوم السيّد (القاضي) آية امرأة أجنبيّة، فلم يكن بصري ليسقط على امرأة أجنبيّة. وقد قالت لي أمي يوماً: إنّ زوجتك أجمل من أختها بكثير. فقلت: إنّني لم أر أختها حتى الآن.

فقالت: كيف لم ترها وهي تتردّد على غرفتنا منذ أكثر من سنتين، ونحن نتناول طعامنا غالباً على مائدة واحدة؟! (من الشائع عند العرب الذين لا تملك نساؤهم حجاباً صحيحاً، أنّهم غالباً ما يعيشون في المنزل محشورين مع بعضهم البعض في منتهى العصمة وتماص العقّة) فقلتُ: والله لم تسقط عيني عليها ولو مرة واحدة!

ولم يكن عدم النظر هذا ناجماً من تحفّظه وغضّه من بصره، بل كانت حالة هكذا طبعاً.

وقد نقل المرحوم آية الله الحاج الشيخ عبّاس القوجانيّ عن نفسه نظير هذا الأمر، فقد كان المرحوم القاضي قد أعطاه أوراذاً وأذكّاراً لمُدّة أربعين يوماً أو أكثر، كان من جملة آثارها (حسب كلام المرحوم الشيخ): كنتُ أسيرُ في الشارع أو السوق فإذا وقع بصري على امرأة أجنبيّة، فإنّ أجفان عيني كانت تنطبق بلا اختيار منّي. وكان مشهوداً أنّ ذلك الأمر يقع بلا تعمّد واختيار منّي^(٢).

(١) «معرفة الله»، ١/ ٢٢٤.

(٢) «الروح المجرّد» ص ٥٨٤.

يقول السيد محمد حسن نجل السيّد القاضي: «فقد سمعت من آية الله الشيخ حسن زاده الآملي أحد مدرّسي قم لعلوم الفلسفة والإلهيات العليا، فقد نقل هذا العالم الجليل من المرحوم السيّد مهدي القاضي - وكانت بينهما صحبة ومودة خلال السنوات العشر الأخيرة من حياته في قم، وكلاهما يغطي رأسه بعباءته ويدخل رأسه في جيبه متأملاً في العلوم الغربية - قال الشيخ: - نقلاً عن السيّد مهدي القاضي - ما توقّعت في مسألة أو مشكلة غامضة (حسابيّة) إلّا وذهبت إلى الوالد، فرأيت أنّه قد سبقني عليها وكشف النقاب عنها وأعاني عليها وكنت أرى أنّ متاعبي في سبيل الكشف عنها قد ذهبت سدى.

سمعت هذه الكلمة من آية الله الشيخ حسن زاده الآملي أثناء ما كان يتحدث بمناسبة الذكرى السنوية للعلامة الطباطبائي وأستاذه في الأخلاق والعرفان الحاج ميرزا علي آقا القاضي قدس الله سرهما^(١).

«أربعون عاماً في حضرة الحقّ تعالى»

يقول العلامة الطهراني رحمه الله: قال لي أحد أصدقائي من علماء الدين في النجف الأشرف والذي تتلمذ طويلاً على السيّد القاضي - أعلى الله مقامه -: قبل أن أتعرف على السيّد القاضي كنت كلّما رأيته ازددت حبّاً له ولأنّي كنت شاكاً في سلوك طريق الوصول إلى لقاء الله تعالى فقد كنت مقصّراً في الدّهاب إليه، إلى أن أرسل لي صديق من شيراز دينارين (أوصلهما إلى المرحوم القاضي وكان المرحوم القاضي يقيم صلاة الجماعة في منزله بحضور بعض مريديه، فذهبت إلى منزله غروباً لحضور الجماعة وأداء الأمانة إليه، فصلّى المغرب بمجرد استتار قرص الشمس طبقاً لنظره الفقهي وفتواه في ذلك وكانت صلاة عجيبة وذات روحية

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام» ١/ ٢٢٢.

عالية، ثم صلّوا النوافل وقرأوا التعقيبات، ثم جلسوا طويلاً حتى دخل وقت العشاء فأدّوا الصلاة بروحية وطمأنينة لا مثيل لها، فأثر ذلك بكم كثيراً وبعد انتهاء الصلاة ذهبت إليه وجلست عنده وأعطيته الأمانة ثم قلتُ له: أودُّ أن أسألك سؤالاً فهل تسمع لي بذلك؟ فقال السيّد القاضي: سل يا ولدي. فقلت: إنني أريد أن أعرف هل إنّ إدراك التوحيد ولقاء الله وسيركم في هذا الطريق هل له حقيقة أم هو مجرد خيال؟ فاحمرّ وجه السيّد القاضي ووضع يده على محاسن وجهه وقال: أنا يا ولدي ومنذ أربعون عاماً في حضرة الحقّ تعالى، فهل هذا خيالٌ ووهمٌ؟! فاستحييت على ما كان منّي وودعته وانصرفت^(١).

«علاقة المرحوم المطهري بالسيّد القاضي»

يقول العلامة الطهراني: «... وهكذا فقد ذهب الحقيّر يوماً إلى منزل المرحوم المطهري فرأيت أنّه وضع في غرفته ثلاث صور: صورة المرحوم أبيه: الشيخ محمد حسين المطهريّ وصورة المرحوم الحاج الشيخ الميرزا علي آقا الشيرازيّ وصورة المرحوم آية الله الحاج الميرزا السيّد علي آقا القاضيّ التبريزي الطباطبائيّ قدّس الله أسرارهم وأعلى درجاتهم ومقاماتهم جميعاً. وكنت كذلك قد أعطيت للمرحوم المطهريّ عند سفره للتشرّف بزيارة العتبات المقدّسة عنوان منزل الحاج السيّد هاشم [من تلامذة السيّد القاضي]، فذهب إليه في كربلاء مرّتين ودام لقاءه الأوّل ساعد تقريباً، ثم ذهب إليه يوماً آخر صباحاً فتناول معه طعام الفطور وكان المرحوم المطهريّ مسروراً يبدو به الوجد عند عودته من هذه اللقاءات...»^(٢).

(١) «التوحيد العلميّ والعينيّ»، ص ٢٢٩.

(٢) «الروح المجرد»، ص ١٧٢.

«كان منهج القاضي نفى الخواطر»

منهج الأستاذ القاضي مطابق لمنهج الأستاذ الكبير الملاً حسين قلى [الهمداني]، أي طريق معرفة النفس، فكانوا لنفي الخواطر يأملون في المرحلة الأولى بالتوجه إلى النفس وأن يُعَيَّن السالك كل ليلة مقدار نصف ساعة أو أكثر لنفي الخواطر وفيها يتوجه إلى نفسه، شيئاً فشيئاً وعلى أثر التوجه القوي تزول عنه الخواطر وتحصل له معرفة النفس، ليصل إلى الوطن المقصود إن شاء الله .

وأكثر الذين وُفّقوا لنفي الخواطر واستطاعوا أن يُطَهِّروا أنفسهم ويصفّوها حتى ظهر فيها سلطان المعرفة، إنّما كان ذلك منهم في إحدى حالتين: الأولى، حين تلاوة القرآن المجيد والالتفات إلى القارئ الحقيقي للقرآن لينكشف لهم أنّ قارئ القرآن هو الله جلّ جلاله . الثانية، عن طريق التوسّل بمقام أبي عبد الله عليه السلام لأنّ له عليه السلام عنايات عظيمة في رفع الحجب والموانع عن طريق سالك طريق الله^(١) .

«مقام السيّد القاضي (ره) هو مقام الخراباتي»

يقول العلامة الطهراني رحمه الله: «... الأدب عبارة عن الالتفات إلى النفس كيلا تتعدّى حدودها وتخالف مقتضى العبوديّة، فكلّ ممكن له حدّ وحريم في القبال الواجب ولازم حفظ الأدب رعاية مقتضيات عالم الكثرة ولكنّ الحبّ هو انجذاب النفس إلى الحضرة الإلهيّة ولازمه الالتفات إلى الوحدة. إنّ النسبة بين الحبّ والأدب مثل النسبة بين الواجب والمحرم من الأحكام، لأنّ السالك أثناء أداء الواجب يتوجه إلى المحبوب وفي الاجتناب عن الحرام يتوجه إلى حريمه الخاصّ كيلا

بشرح عن حدوده الإمكانية ومقتضى عبوديته، فالأدب يرجع - في حقيقته - إلى جانب اتحاد الطرفين المعتدل بين الخوف والرجاء ولازم عدم رعاية الأدب، كثرة الانبساط بمقدار يوجبه تجاوز الحدود المرسومة للسالك. كان المرحوم الحاج الميرزا علي الفاضلي رضوان الله عليه يغلب لديه جانب الحب والانبساط على جانب الخوف وكذلك كان المرحوم الحاج الشيخ محمد البهاري رحمه الله عليه وهي المقابل الحاج الميرزا جواد الملكني التبريزي رضوان الله عليه، حيث كان مقام الخوف غالباً على الرجاء والانبساط وهذا الأمر مشهود من خلال جوانب وزوايا أحاديته. والذي يكون رجاؤه أكثر يقال له «الغراباني» وأما من يطفى غوفه فيسقى «الساجاني».

ولكن الكمال في رعاية الاعتدال وهو عبارة عن حيازة كمال الرجاء في حين كمال الخوف وهذا ما يتحصر وجوده في شخص الأنثى الأظهر ^(١).

«ابتداء ظهور التجليات النسبية»

يقول العلامة الطهراني ^(٢): «... عندما يواظب السالك على المراقبة، يُظهر الله سبحانه تعالى عليه من باب العطش والرافة أنواراً بعنوان الطلائع. في بداية الأمر تظهر هذه الأنوار مثل البرق لتختفي فبأف، ثم تنوى شيئاً عتيقاً حتى تصبح مثل النجمة الصغيرة المثلثة، ثم تقوى لتصبح مثل القمر وبعدها تظهر كالشمس الساطعة وأحياناً مثل ضوء مصباح أو قندهل مشعل. وهذه الأنوار تُسمى في اصطلاح العارفين بـ «النوم العرفاني»، وهي من قبيل الموجودات البرزخية. وحينما يترقى

(١) رسالة نُتُ الباب، ص ١١٢.

السالك في مراتب المراقبة لتكتمل عنده مراحلها تُصبح هذه الأنوار أقوى، فيرى السالك كلَّ السماء والأرض شرقاً وغرباً دفعة واحدة مضيئة مشرقة، هذا النور هو نور النفس الذي يسطع حين العبور من عالم البرزخ. لكن في المراحل الأولى للعبور عند ابتداء ظهور التجليات النفسية يشاهد السالك نفسه بصورة مادية وبعبارة أخرى قد يلاحظ نفسه وكأنّها واقفة أمامه وهذه المرحلة هي مرحلة ابتداء التجرد.

يقول المرحوم الأستاذ العلامة القاضي رضوان الله عليه: خرجت من غرفتي يوماً متخطياً ممرّ البيت، فرأيت نفسي واقفة بسكون إلى جانبي، فنظرت إليها بدقّة متناهية فرأيت في وجهي خالاً لم ألحظه من قبل، وعندما دخلت إلى الغرفة ونظرت في المرأة، رأيت فعلاً أنّه كان يوجد في وجهي خال. ولم أكن حتى ذلك الوقت ملتفتاً إليه^(١).

«إِرْجِعْ إِرْجِعْ!»

يقول آية الله نجابت الشيرازي: حينما كنت طالباً في النجف كنت أتلقى التربية الخلّقية والروحية على السيّد القاضي وقد سأله قبيل وفاته عن الشخص الذي أرجع إليه بعده، فقال القاضي: الشخص الوحيد الذي أعرفه هو رجل في همدان باسم الشيخ محمد جواد الأنصاري وهو الشخص الوحيد الذي أخذ التوحيد مباشرة من الله جلّ جلاله. ثم قال: عندما جاء إلى النجف فعزم يوماً على زيارتي وكنت جالساً في غرفتي فرأيت قاصداً دارنا ومعه شخص آخر، فكرهت لقاء الشخص الذي جاء معه، فقلتُ له: إِرْجِعْ إِرْجِعْ! فرجع مع صاحبه ولم أره بعدها.

(١) رسالة بُبّ الباب، ص ٢٤.

وبعد مرور أيام على وفاة السيّد القاضي، سافرت إلى همدان للقاء الشيخ الأنصاري وعندما وصلتُ إليه كان يرفض قبولي وألححت كثيراً حتى قبلني وقال: لم يكن أحد يعرفني حتّى الآن ولكن شاء الله سبحانه أن لا أبقى مخفياً أكثر من هذا. يقول آية الله نجابت: فسألته عن سبب عدم لقاءه مع السيّد القاضي عند زيارته النجف، فقال: عندما جئت إلى النجف وبقيت فيها أياماً عزمت على زيارة السيّد القاضي وكان يرافقني شخص آخر ولكن عندما كنتُ أسير في الطريق إليه سمعتُ صوتاً في قلبي يقول لي «إرجع إرجع» فرجعتُ ولم أوقّق لزيارته مرة أخرى.

فقلت له: هذه الحادثة قد سمعتها من السيّد القاضي أيضاً وأنبأته بأن سبب عدم لقاءه مع السيّد القاضي في ذلك اليوم هو الشخص الآخر الذي كان بصحبته^(١).

«إحراق جذور الطمع»

يقول العلامة السيّد محمد حسين الطهراني رَحِمَهُ اللهُ: «نقل عن بايزيد البسطامي أنّه قال: «تركْتُ الدنيا في اليوم الأوّل وفي اليوم الثاني تركْتُ العُقبى وفي اليوم الثالث تخطّيت ما سوى الله وفي اليوم الرابع سُلْتُ: ما تُريد؟ فقلت: أريد أن لا أريدُ».

ويشير إلى نفس المطلب ما يصرّح به البعض في تعيين المنازل الأربعة: الأوّل ترك الدنيا، الثاني ترك العُقبى، الثالث ترك المولى والرابع ترك الترك، فتدبّر والمراد من نبذ الطمع عند السالكين هو هذه المرحلة العظيمة والعقبة المشكّلة وعبورها في غاية الصعوبة وليس تحصيلها بالهين، لأنّ السالك في هذه المرحلة بعد التأمل والتدقيق يجد

أنّه لم يكن خالياً من النية في تمام مراحل السير، بل كان له غاية ومقصود في سويداء قلبه وإن كانت تلك الغاية هي العبور من مراحل الضعف والنقص والوصول إلى الكمال والكمالات. ولو سعى السالك - عن طريق تجريد الذهن والضغط على نفسه مرّات عديدة - ليعبر هذه العقبة ويعرّي ويجرّد نفسه من هذه المعاني والمقاصد، سوف لن يحصل على أية نتيجة، لأنّ نفس هذا التجريد مستلزم لعدم التجريد وذلك لأن نفس ذلك التجريد لم يكن من السالك إلّا لداعٍ وغاية وهذا النظر إلى الغاية دليّة وعلامة على عدم التجريد.

ذات يوم طرحتُ هذا السرّ على أستاذي المرحوم الحاجّ الميرزا على القاضي رضوان الله عليه والتمست منه حلّ هذه المعضلة، فقال: «يمكن حلّها بواسطة اعتماد طريقة الإحراق وذلك بأن يدرك السالك - حقيقة - أنّ الله تعالى خلقه مفطوراً على هذه الصفة وكلّما أراد أن ينبذ الطمع لن يحصل على نتيجة، لأنّ فطرته جبلت عليه. فسعيه لنبذ الطمع عن نفسه مستلزم لطمع آخر، لأنّه لا يسعى لذلك إلّا طمعاً في الحصول على مرتبة أعلى من التي هو فيها وهكذا إلى أن يشعر بالعجز التامّ عن التخلّي عن هذه الصفة، فلا يجد حينئذٍ مفرّاً سوى اللجوء إلى الله تعالى وتوكيل الأمر إليه وهذا الشعور بالعجز كفيّل بأن يحرق بنار جذور الطمع في نفسه، فيعود السالك بعدها نزيهاً طاهراً».

وليعلم أنّ الوصول إلى إدراك هذا المعنى لا يكون بمجرد إعمال النظر والتفكير، بل إنّ إدراكه الواقعيّ يحتاج إلى الذوق وحصول الحال. ولو أنّ أحداً أدرك هذا المعنى بالذوق لفهم أنّ إدراك تمام لذات الدنيا وما فيها لا يساوي هذه الحقيقة. ثم إنّ سبب تسمية هذه الطريقة بالإحراق هو أنّها تحرق أكوام الوجودات والنيات والغصص والمشكلات دفعة واحدة

وتجتثّها من الجذور ولا يبقى لها من أثر في وجود السالك . . . »^(١).

«نشاط لصلاة الليل»

يقول العلامة السيّد محمد حسين الطهراني: « . . . كان السيّد [هاشم الحدّاد] يتناول أوّل الغروب بعد صلاة المغرب طعاماً بسيطاً، بعنوان طعام العشاء كان يُجلب له من منزله المجاور، الذي تعيش فيه عائلته والواقع في بداية الرّفاق، ثمّ يرقد بعد أداء الصلاة العشاء وينهض بعد ساعة، فيهبّط من السطح ويتوضّأ، ثمّ يصعد فيصلّي ركعات يقرأ فيها من السّور الطوال في القرآن بصوت جميل ولحن رائع، ثمّ يجلس تجاه القبلة فيبقى متأمّلاً، ثمّ يرقد، ثمّ يستيقظ مرة أخرى فيصلّي ركعات بتلك الكيفيّة وكانت الليالي قصاراً فلم يكن ليتبقّى وقت طويل لحلول آذان الصبح . وكان كثيراً ما يقول في تلك الحال أو في المرّة الأولى حين يستيقظ! أيّها السيّد محمد الحسين! هات شايّاً أو ماء مغليّاً! فكان الحقيّر يهبّط إلى الأسفل فيعدّ الشاي على سراج نفطيّ ويجلبه على الفور .

وكان السيّد يقول: لقد كان السيّد المرحوم نفسه هكذا (يقصد المرحوم القاضي) فقد كان يأمرنا ويقول: تناولوا شيئاً بسيطاً حين تنهضون لصلاة الليل، كالشاي أو اللبن الرائب الممزوج بالماء أو عنقوداً من العنب أو شيئاً بسيطاً آخر يخرج بدنكم من حال الفتور والكسل، ليكن لكم نشاط للعبادة»^(٢).

«إخبار السيّد القاضي عن غضب منزل السيّد الحدّاد»

كان منزل السيّد هاشم الحدّاد ملكاً لعياله، وهبها إياه أبوها المدعوّ

(١) رسالة لبّ اللّباب، ص ١١٨ - ١٢٠.

(٢) «الروح المجرد» ص ٧٨.

بـ «حسين أبو عمّش» وكان يحترم السادة ويحبّهم كثيراً وخاصة صهره السيّد هاشم هذا وباعتبار كبر عائلة السيّد هاشم فقد قال: إنّ هذا البيت خاصّ بهؤلاء الأطفال السادة. وأوصى بذلك خطيباً إلّا أنّ زوج أخت زوجته المدعوّ بالحاجّ صمد الدلال أنكر هذه الوصيّة بعد وفاته وقام بمراجعة الدوائر الرسمية، على الرغم من عدم حاجته وتمكّنه المادي! ومن ثم فقد أرسلت الحكومة من قام ببناء جدار وسط البيت؛ فصار هذا البيت الصغير الحاوي على ثلاث غرف صغيرة ناقصاً غير قابل للسكنى، إذ لم يكن لهذا النصف باب إلى الخارج ولا مرافق صحيّة، فكان أهله وأطفاله يُجبرون على صعود السلم إلى السطح ثم النزول إلى الجانب الآخر عبر سلّم آخر، ممّا أدّى إلى إصابة أهل السيّد هاشم بالأمراض. فأجبروا أخيراً على إخلاء المنزل لنصب باب له ولبناء مرافق صحيّة ولإصلاح الحائط المحاذي للشّارع والذي كان متداعياً من أساسه.

وكان المرحوم القاضي قد أخبره عن غضب نصف هذا المنزل وعن بنائه وتسليمه إيّاه وهكذا حدث بالفعل وللمسألة شرح يطول الأمر بذكره. أمّا ذلك المنزل المستأجر المقابل فقد تسبّب - لفقدانه الإنارة والأمر الصحيّة بشكل صحيح وكامل - في وفاة أحد أحفاد السيّد هاشم، واسمه محمد بن السيّد حسن في تلك الأيام التي حلّ فيها الحقيّر عندهم إثر إصابته بمرض الحصبة. وكان هذا الطفل شبيهاً بالمرحوم القاضي للحدّ الذي كان السيّد الحدّاد يسمّيه بالقاضي الثاني وكان يحبه كثيراً. وقد تأثّر السيّد الحدّاد لموت هذا الطفل كثيراً؛ وحين نقل الحقيّر الجنازة معه إلى محلّ غسل الأموات في منطقة المُخَيّم الحسينيّ، لم يتمكّن من السيطرة على دموعه التي انهمرت بغزارة. فقلت له عصر ذلك اليوم: أوّلم يكن لكم رغبة في بقاء هذا الطفل حيّاً ليردّ الله عنه الموت ويكتب له الحياة؟!

قال: بلى، ولكن الأمر من ذلك الجانب يغلب أحياناً، فيسلب الرغبة والإرادة من هذا الجانب^(١).

«أعلمُ بذلك!»

قال سماحة السيّد محمد حسن القاضي - أدام الله أيام بركاته - ابن المرحوم القاضي - أعلى الله درجته -: لقد أ برق نبأ رحلة المرحوم المسقطي إلى سماحة السيّد أبي الحسن الأصفهاني، فأرسل البرقية التي تتضمن نبأ الوفاة بيد أحدهم إلى المرحوم القاضي وكان قد اتخذ غرفة في مدرسة الهنديّ. وكنت في صحن المدرسة مع العلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي والشيخ محمد تقي الآملي وغيرهما من تلامذة المرحوم القاضي، فلم يجرؤ أحد منهم أن ينقل خبر رحيل المسقطي إلى الغرفة العليا ويوصله إلى المرحوم القاضي، فقد كانوا يعلمون أنّ هذا النبأ غير محتمل بالنسبة للمرحوم القاضي لفرط علاقته بالمسقطي، لذا فقد اختاروا السيّد الحدّاد لهذه المهمّة، فلمّا نقل إليه النبأ التفت إليه المرحوم القاضي قائلاً: أعلمُ بذلك!^(٢).

«مَنْ هُوَ الْمَسْقُطِي؟»

«... . أنّ المرحوم السيّد حسن الأصفهاني المسقطي - وكان من أعظم تلامذة المرحوم القاضي وله علاقات ممتدة وحسنة جداً مع السيّد الحدّاد - قد رحل عن الدنيا سنة ١٣٥٠ هـ ق، فإنّ المرحوم السيّد هاشم قد اكتسب من فيض المرحوم القاضي أكثر منه بستّ عشرة سنة. فكم - يا قرى - استفاد المرحوم المسقطي من محضر المرحوم القاضي؟ لو كانت

(١) «الروح المجرّد» ص ١٠٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٢.

الإجابة اثنتا عشرة سنة لا تمنح أن رفيقي الطريق هذين قد تشرفا في الحضور في محضر المرحوم القاضي في زمن واحد، أمّا إذا كان ذلك أقلّ من اثنتي عشرة سنة، فسيكون السيّد الحدّاد قد سبقه في الاستفادة من محضره.

وكان السيّد هاشم يذكر السيّد حسن المسقطي كثيراً في كلامه ويقول: كان له حماس شديد وتوحيد رفيع، وكان أستاذاً في البحث وتدريس الحكمة، وكان متفوقاً ومميّزاً في المجادلة، فلم يكن أحد ليجرؤ أن يجادله أو ينازعه أو يبحث معه أمراً؛ لأنّه لا يخرج من ذلك إلّا بنصيب الإدانة.

وكان يجلس في الصحن المطهر لأمر المؤمنين ﷺ فيدرّس الطلاب درس الحكمة والعرفان، وكان يثير الحماس والهيجان بحيث كان يبعث في طلابه روح التوحيد والخلوص والطهارة بدروسه المتينة المحكمة، ويسوقهم إلى الإعراض عن الدّنيا والاتّجاه صوب العقبي وعالم التوحيد الحقّ.

ولقد نقل أتباع المرحوم آية الله السيّد أبي الحسن الإصفهاني (قدس سرّه) له: بأن السيّد حسن لو استمرّ في دروسه لقلب الحوزة العلميّة إلى حوزة توحيدية، ولأوصل جميع الطلاب إلى عالم الربوبية الحقّ وإلى حقيقة عبوديتهم.

لذا فقد مُنِعَ تدريس علم الحكمة الإلهية والعرفان في النجف كما أمر السيّد حسن بالذهاب إلى «مَسْقَط» للتبليغ وترويج الدين.

ولم يكن للسيد حسن أدنى رغبة في الخروج من النجف الأشرف، وكان فراق المرحوم القاضي بالنسبة له من أصعب الأمور والمشكلات؛

لذا فقد ذهب إلى أستاذه السيّد القاضي وقال له: أسمحون أن أستمّر في
الدرس وأتجاهل منع السيّد وأستمّر في الجهاد في طريق التوحيد؟!!

فردّ المرحوم آية الله القاضي عليه: اذهب من النجف إلى مسقط حسب
أمر السيّد! إنّ الله معك، وسيهديك ويأخذ بيدك حيثما كنت فيوصلك إلى
المطلوب الغائي ونهاية درب السلوك وأعلى ذروة التوحيد والمعرفة.

وهكذا فقد سافر السيّد حسن إلى مسقط، وكان أصفهاني الأصل
ومعروفاً بالإصفهانيّ، ثم عُرف بعد ذلك بالمسقطي. وكان لا يرد - في
طريقة إلى مَسْقَط - فندقاً أو دار ضيافة، بل كان يأوي إلى المساجد.
وحين وصل مسقط كان له حظّ في التبليغ والترويج، فقد جعل أهل مسقط
بأجمعهم من المؤمنين الموحّدين ودعاهم إلى الصدق والإخلاص
وإهمال الزخارف الماديّة والتعيّنات الصوريّة والاعتباريّة؛ فعرفه الجميع
على أنّه مرشد الكلّ وهادي السبل، وأذعن أمام عظمته العالم والجاهل
والعوامّ والخواصّ. وكان آخر عمره يعيش دوماً مرتدياً لباسيّ الإحرام.

وكان أن دعوه للذهاب إلى الهند، فأجاب دعوتهم وشدّ الرحال،
إلى تلك الديار في سبيله إلى المقصود. ولم يكن كذلك ليحلّ في طريقه
بالفنادق بل كان يذهب إلى المساجد فيبيت فيها، حتّى وجدوه - وهو في
طريقه متنقلاً من مدينة إلى أخرى - في مسجد من المساجد مرتدياً نفس
ثوبي الإحرام وقد فارق الحياة حال سجوده^(١).

«لا تمزج بإصبعك!»

يقول العلامة الطهرانيّ (قدّس سرّه): «... وصادف مرة أن وضعتُ
قدراً من الثلج في قدح فيه لبن رائب ممزوج بالماء وأردتُ تقديمه إلى

السيد هاشم الحداد فقمْتُ بمزجه وخلطه بسبّابتي لتبريده قبل تقديمه فلم يشربه وقال: استعمل الملعقة للمزج فأحرى باليد أن تكون ملوثة! ثم قال: لقد اتَّفَق لي نفس هذا الأمر مع المرحوم السيد (القاضي) فقد تشرّف يوماً بالمجيء إلى كربلاء وتفضّل بالمجيء إلى دكاني، فأعددتُ له قدحاً من اللبن الرائب الممزوج بالماء ووضعت فيه الثلج ثم مزجته بإصبعي لأقدمه له، فاستنكف عن شربه وقال: لا تمزج بإصبعك!«^(١).

«لقد وصلت!»

قال السيد هاشم الحداد: كنت مشغولاً في كربلاء بالدروس العلمية وغيرها من دروس الطلبة، فقرأتُ للسيوطيَّ وحين تشرّفت بالذهاب إلى النجف للدراسة والتحصيل لأنهل من محضر السيد المرحوم القاضي ولأقوم بخدمة المدرسة (المدرسة الهندية: محلّ إقامة المرحوم القاضي): وما إذ دخلتُ هناك حتّى رأيت أمامي سيّداً جالساً فأحسست بانجذاب نحوه بلا إرادة، فذهبتُ وسلّمتُ عليه وقبّلتُ يده، فقال المرحوم القاضي: لقد وصلت!

ثم اتّخذت غرفة هناك لنفسي ومنذ ذلك الوقت ومن هناك فتح باب المراودة مع السيد وصادف أن كانت غرفة السيد الحداد هي غرفة المرحوم السيد بحر العلوم. وكان المرحوم القاضي يتردّد عليها كثيراً وكان يقول له أحياناً: أخلِ الغرفة الليلة! أريد أن أبيت هنا لوحدي!

وكان السيد يقول: وبعد دعوتي إلى كربلاء كنت أشرّف أحياناً بالذهاب إلى النجف في أوقات الزيارة وغيرها - غير الأوقات التي كان السيد القاضي يتشرّف فيها بالمجيء إلى كربلاء - فذهبتُ يوماً من كربلاء

إلى النصف الأشرف وأخذت للسيد خمسين فلساً (أي درهماً واحداً والدينار العراقي عشرون درهماً) وكان منزل السيد في محلة المجلدية (الشوارع الثاني) وكان الجزء حاراً، فعلمت أن السيد (القاضي) نائم، وقلت هي نفسي: إن طرقت الباب استيقظ السيد. فجلست على الأرض جنب باب البيت، وكنت نائمة لدرجة أن العاصي مرغان ما غلبني. ثم استيقظت بعد ساعة فرأيت السيد وقد خرج إلي ولاطفي كثيراً ودعاني إلى الدخول، ثم قدمت له الخمسين فلساً وعدت^(١)

«ابن العربي والمولوي من وجهة نظر المرحوم السيد القاضي»

لقد كان سماحة الحاج السيد هاشم الحنّاد - قدس الله روحه - يقول: كان للمرحوم السيد القاضي اهتمام كبير بمحبي الدين بن عربي وكتابه الفتحوات الصكية، وكان يقول: إن محبي الدين من الكاملين وهناك في فنوحاته شواهد وأدلة جمة على كونه من الشيعة وهناك مطالب كثيرة فيه تناقض الأصول المسلمة لأهل السنة.

لقد كتب محبي الدين كتاب «الفتوحات» في مئة المكية، ثم يسط جميع أودافه على سقف الكسبة وتركها سنة لتضمحل المطالعة الباطلة منها - إن وجدت - بهطلون الأمطار، فيشخص الحق منها عن الباطل. وبعد سنة من هطول الأمطار المتعاقبة جمع تلك الأوراق المشورة فشاهد أن كلمة واحدة منها لم تُمح ولم تُعسل.

كما كان يعدّ الملائ الرومي أيضاً عارفاً رفيع المروية ويستشهد بأشعاره ويعتبره من الشيعة المخلصين لأمر المؤمنين ﷺ.

وكان المرحوم القاضي يقول بأن: من المحال أن يصل امرؤ إلى

مرحلة الكمال فلا تصبح حقيقة الولاية مشهودة لديه . وكان يقول : إن الوصول إلى التوحيد ينحصر بالولاية ؛ الولاية والتوحيد هما حقيقة واحدة .

وعليه فإنّ العظماء المعروفين والمشهورين من عرفاء أهل السُّنة ، إمّا أنّهم كانوا يعملون بالتقيّة ويخفون تشيّعهم أو أنّهم لم يصلوا إلى الكمال . وكان سماحة الحاج السيّد هاشم يقول : كان للمرحوم القاضي كذلك دورة من «الفتوحات المكيّة» باللغة التركية يطالعها وينظر فيها أحياناً .

وكان سماحة آية الله الشيخ عبّاس القوجاني يقول : كنت أذهب يومياً قبل الظهر إلى محضر المرحوم القاضي لساعتين وهو الوقت الذي يتشرّف فيه جميع تلامذته والمشغوفون به بالحضور عنده . وكنت في هذه السنوات الأخيرة أقرأ له كتاب «الفتوحات» فكان يستمع لي ، فإذا ورد علينا شخص غريب فقد كنتُ أقطع قراءتي فيتكلّم المرحوم القاضي عن مواضيع أخرى .

«حافظ الشيرازي وابن الفارض من وجهة نظر المرحوم القاضي»

ولقد كان المرحوم القاضي رحمة الله عليه يعتبر حافظ الشيرازيّ عارفاً كاملاً ويفسّر أشعاره المختلفة على أنّها شرح منازل السلوك ومراحله ، لكنّه كان يعتقد أنّ ابن الفارض تلميذ محبي الدين كان أكمل منه . وكان يذكر لهذا الأمر شواهد من ديوان حافظ» ومن أشعار ابن الفارض في «نظم السلوك» (التائية الكبرى) وكان يقول في جملتها : يقول الحافظ في تمثيل وبيان أصالة عشق ومحبة الله والولّه واليَمَان به :

عشق تو در وجودم ومهر تو در دلم

با شیر اندرون شد و با جان به در شودا

[يقول: ورد عشقك في وجودي وحبك في قلبي مع اللبن الذي رضعته، ولن يخرج إلا مع روحي].

ويبين ابن الفارض هذه المحبة والعشق بهذا التعبير:

وَعِنْدِي مِنْهَا نَشْوَةٌ قَبْلَ نَشَأَتِي

مَعِيَ أَبَدًا تَبَقَّى وَإِنْ بَلِيَ الْعَظْمُ^(١)

أي إنَّ عشقي وسكري من شرابه كان قبل خلقي وإيجادي وسيبقى هكذا إلى الأبد ولو بليت عظامي ونخرت.

فلقد جعل حافظ بدء العشق مقترناً من بدء الخلقة المادية والطبيعية وقرن نهايته بالموت الطبيعي، لكن ابن الفارض يعتبر بدايته قبل الخلقة بآلاف السنين وهو باق ومستمر إلى النهاية بعد الخلقة.

وحقاً فقد ضمّن ابن الفارض في هذه النكتة الواردة في هذا البيت معنى التجرد عن الزمان والمكان للنفس الآدمية وعدّلها الأبدية والأزلية في سير مدارج النزول والصعود، بينما لم يبلغ شعر حافظ هذه الذروة.

يقول ابن الفارض في البيت اللاحق:

عَلَيْكَ بِهَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَزَجَهَا

فَعَدْلُكَ عَنْ ظَلَمِ الْحَبِيبِ هُوَ الظُّلْمُ

والظلم بالظاء المفتوحة هو الريق وماء الفم، فيكون معنى البيت: عليك بذات المحبوبة ونفسها (وعدم التنازل عنها إلى غيرها) وإن شئت أحياناً التنازل عن ذاتها ونفسها فأردت مزج تلك الذات الصرفة والنفس المجردة النورانية بشيء آخر، فلا تتعدّ ريقها ورحيقها وأمزجه بذات

(١) «ديوان حافظ» تصحيح الدكتور رشيد عيوضي والدكتور أكبر بهروز، ص ٢٣٥، طبعة انتشارات أمير كبير، سنة ١٣٤٣.

المحجوبة، ولا تلتفت إلى شيء آخر غير رحيق فمها، لأنّ ظلم، بل هو الظلم الأواحد.

كان يقول المرحوم القاضي: المراد من «ظلم الحبيب» آل محمد ﷺ، لأنّ في هذا البيت دعوة إلى التوحيد المحض والاستغراق في الذات الأحدية، وعدم التنازل عنها بأيّ شيء آخر يمكن فرضه وتصوره.

أمّا آل محمد ﷺ في هذا التعبير العرفانيّ الراقي والكناية السلوكية البديعة، فهم بمنزلة ظلم الحبيب، أي ريق الحبيب الذي هو أعذب وألذّ من أيّ شيء آخر، وأكثر بعثاً على الطمأنينة والراحة، وبغضّ النظر عن نفس الحبيب، فليس هناك شيء آخر بحلاوته.

ومن ثمّ ففي مقام الكثرة والتنزّل عن تلك الوحدة الحقيقيّة، فأعدّل فقط إلى آل محمد ﷺ وامزجهم معها، فليس في آية من نشأت عالم الوجود من الملك والملكوت بمثابة موجود يبعث على الطمأنينة ولا كمثّلهم شيء في سعة الولاية وشمول الآيتيّة والأقربيّة من الذات الأحدية.

إنّ ارتضاع شفاه الحبيب وارتشاف رحيق فمه هو - بلحاظ القرب والفناء والاندكاك في وجود ذات الحبيب ونفسه - من أشدّ الأشياء وأكثرها إظهاراً للاتّحاد بنفس الحبيب وأكثرها حكاية عن نفس الحبيب عند مزجها بشيء آخر. ولقد جعل آل محمد ﷺ في هذا التشبيه والاستعارة البديعة العرفانية، متّحدين ومتوحّدين مع الذات الأحدية والفناء والاندكاك في ذات ما لا اسم له ولا رسم له بالشكل الذي لا يتصوّر أقرب منه.

وعليه، فإنَّ ظلم الحبيب اللازم في مقام البقاء بعد الفناء،
والضروريّ للسالك لن يكون شيئاً غير عترة خاتم الأنبياء وغير آل
محمد ﷺ .

والشاهد على هذا المدعى ما يقوله هذا العارف الجليل في يائيته :
ذَهَبَ الْعُمَرُ ضَيَاعاً وَانْقَضَى
بِاطِلاً إِذْ لَمْ أَفْزُ مِنْكُمْ بِشَيْءٍ
غَيْرَ مَا أُولَيْتُ مِنْ عَقْدِي وَلَا
عُتْرَةَ الْمَبْعُوثِ حَقّاً مِنْ قُصَيٍّ^(١)

أي إنّ حاصل قضاء عمر في السير والسلوك إلى الله هو الوصول إلى
ولاية العترة الطاهرة وعقد الولاء لهم الذي وُهب لي وأوليته ففرزت
بذلك ونلت مناي . ويستفاد من ذلك أولاً: أنّ السير والسلوك الصحيح
المنزه عن الغشّ والخالص من شوائب النفس الأمّارة، يوصل السالك
آخر المطاف إلى العترة الطيبة، ويمتّعه من أنوارهم الجمالية والجلالية في
مرحلة كشف الحجب . وإنّ ابن الفارض الذي كان من العامة ومتّبِعاً
لمذهب السُنّة بشكل مسلم، حتى أنّ كنيته واسمه هما أبو حفص عمر، قد
ارتوى آخر الأمر والعمر من شراب معين الولاية، وأنّه سعد واستفاض
من رحيق فم محبوب الأزل .

(١) «ديوان ابن الفارض» القصيدة اليائية التي مطلعها: «سَائِئُ الْأَظْهَانِ يَطْوِي الْبَيْدَ طَيٍّ»
ص ٢٥ . وقد كتب العالم العزيز والمحقق الجليل صديقنا القديم الحاج السيد
جلال الدين الآشتياني دامت بركاته في مقدّمة كتاب «مشارك الدّراري» لسعيد
فرغاني، ص ١١: يعتقد ابن الفارض في هذا الأثر حسب نهج التحقيق والاختيار
بأنّ جهة ولاية خاتم الأنبياء لا تنقطع النبوة، لذا فهو يقول:

بِعِترِهِ اسْتَعْتَنَ عَنِ الرُّسُلِ الْوَرَى وَأَوْلَادِهِ الظَّاهِرِينَ الْأَثَمَةَ
وقد ورد في بعض النسخ المطبوعة والخطية للتائية عبارة «وأصحابه الظاهرين»؛
وباعتبار أنّ بعض النساخ من أهل السُنّة فقد أبدلوا «أولادِهِ» إلى «أصحابِهِ» .

وثانياً: وكما قال المرحوم القاضي قدس الله نفسه، فإن الوصول إلى مقام التوحيد والسير الصحيح إلى الله وعرفان ذات أحديته عز اسمه مُحال بدون ولاية أئمة الشيعة والخلفاء الحقيقيين: علي بن أبي طالب وأولاده من البتول العذراء صلوات الله عليهم. وهذا الأمر مشهور لابن الفارض، وقد ثبت وتحقق لكثير من العرفاء الأجلاء، كمحيي الدين بن عربي، والملا محمد الرومي، وفريد الدين العطار النيسابوري وأمثالهم.

وحاصل الأمر إنه بواسطة الارتباط الدقيق لمعاني «الفتوحات» مع أشعار ابن الفارض وبالأخذ بنظر الاعتبار كون محيي الدين بن عربي أستاذ ابن الفارض المصري وتناغم وانسجام أقوالهما في السير والسلوك بل تشابهها واتحادها، وباعتبار أنج نتيجة السلوك ابن الفارض كانت الوصول إلى ولاء أهل بيت العصمة، فإن هذه النتيجة والثمرة يمكن مشاهدتها في سلوك وسير محيي الدين أيضاً:

كان المرحوم القاضي يقول: قال محيي الدين يوماً لابن الفارض: من الأفضل أن تكتبوا شرحاً لديوانكم!

فردّ ابن الفارض: أيها الأستاذ! إن فتوحاتكم المكيّة هي شرح لديواني!

ينقل فخر العلماء والمفسرين ورأس أهل الرواية والمحدثين وعلم الحكماء والعارفين المرحوم المحقق الفيض الكاشاني في كتابه «كلمات مكنونة» مطلباً عن محيي الدين يسطع ويتوهج كالشمس إلى يوم القيامة ويشعّ متلألئاً إلى الأبد كخطوط منقوشة بالأنوار الملكوتيّة على طلعة الأفق الزرقاء؛ يقول: قال صاحبُ الفتوحات بعد ذكر نبينا صلى الله عليه

وآله، وأنه أوّل ظاهر في الوجود؛ قال: وأقربُ الناس إليه عليّ بن أبي طالب، إمامُ العالمِ وسرُّ الأنبياء أجمعين^(١).

يقول المرحوم الحاجّ السيّد هاشم الحدّاد (قدّس سرّه): «... أنا فكّدت أن أطير من الفرح بعدما عرفت أنّ ضالّتي المنشودة قد اهتديت إليها وسأعيش في أكنافها وتحت دفء أجنحة لطفها ومودّتها، فبقيت مُدّة مع السيّد القاضي ودرست بعض الدروس الحوزويّة في الفقه الاستدلالي بالإضافة إلى التوجيهات التي كنت أتحف بها من أستاذي، فكنا بعدها معاً ويأتي هو وقت العصر إلى غرفتي^(٢)، أعدُّ له الشاي فيشرب شيئاً عندي، وهكذا إلى أن تغيّر وضع المدرسة بعد سنتين.

وبعد ذلك أشار عليّ أستاذي بالرجوع إلى كربلاء والمداومة على صنعتي، وهي الحدادة، فأطعْتُ أوامره بالرجوع باللحظة التي أشار عليّ بذلك، رغم أنّ ذلك كان يشقُّ عليّ كثيراً لشدّة تعلّقي بأستاذي حتّى أنّي كنت لا أقدم على شيءٍ لا يرغبه، فرجعت إلى كربلاء واستأجرت دكاناً بالقرب من خزان الماء وقمتُ أعمل بالحدادة، وكنت أعدّ اللحظات لحظة بعد لحظة إلى أن تأتي ليلة الجمعة لمشاهدة أستاذي، حيث إنه كان يأتي في أكثر ليالي الجمعة للزيارة، وكنت أصطحبه وأذهب معه لأداء فريضتي المغرب والعشاء على سطح كشوانيّة رقم واحد في صحن أبي الفضل العباس (عليه السلام)، وكنت أأتّم به وبعد الفريضتين يدير وجهه إليّ يسألني عن أموري العامة والخاصة، فكان يسألني عن عائلتي وأطفالي

(١) «كلمات مكنونة»، ص ١٨١، الطبعة الحجرية؛ و«اليواقيت والجواهر» للشعراني، ٢/ ٢٠، المبحث ٣٢، باختلاف يسير في اللفظ. («الروح المجرّد»، ص ٣٢١).

(٢) وهي المشهورة بغرفة السيّد مهدي بحر العلوم الذي يتشرف بها بلقاء صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وكسبي، وكذلك عن حالي في السير والسلوك، وأنا كنت أشرح له عندي وأعرّفه بكلّ ما يسأله منّي صغيرة أو كبيرة، فإذا كانت لديّ مكاشفة أو رؤيا كنت أقصّها له أو بعض الخواطر كنت أستفسر منه أو سؤال تبادر إلى ذهني فأسأله، وحتى عن أموري المعاشيّة والزوجة والأولاد، فكنت أطلعه على ما عندي.

وقد كان عندي شريك اسمه محمد خضر وكان سنّيّاً إلا أنه يدّعي التشبّع وكان يحترم السيّد القاضي وكان يقول لي في كل أسبوع: أرجوك اسئل من السيّد عليّ هل يجوز سبّ أعداء أهل البيت أو لا؟ فأقول له: أهذا الأمر يحتاج إلى السؤال؟ إنّ هؤلاء معروفون فهم كذا وكذا وعندما يأتي اليوم الثاني لمجيء المرحوم السيّد القاضي يعيد عليّ نفس السؤال، فأردّ عليه نفس الردّ... ولما أضحى النهار قلت له: محمد! إنني صممتُ على الذهاب والسكنى والعمل بالنجف الأشرف وأريد فسخ الشراكة، ولما كانت شاطرتي مشهودة ونتاج عملي ما يعادل سبعة حدادين، وكلّ واحد يرغب أن يشاركني؛ لذا فإنّه أبى ذلك وأخذ يتشبّث لإقناعي بالعدول عن تصميمي هذا، فقال: كلّ ما تريد أنا في خدمتك ما هو الذي أزعجك؟ كل ذلك لإقناعي، فأبيت ذلك وأطلعته على أنّ تصميمي قطعيّ، فلما تيقّن من أنّه لا جدوى من ممانعته، قال: إنّي لا أملك مالاً أعطيّكه، فتركت له الدكان وما فيه سوى ما أخذت من الشيء اليسير منه وانصرفت إلى النجف الأشرف؛ لأنّي علمت أن شراكتي معه تضرّ بسلوكي، وليس من رأي أستاذي البقاء في شراكتي معه، وبعد أيام رجعتُ إلى كربلاء واستأجرت دكاناً في منطقة أخرى لمزاولة صنعتي وهي الحدادة - ولكن لوحدي - وكنت أجدّ وأجتهد في عملي خلف الكورة - فرن الحدادة - لكي أجمع في الأسبوع درهماً وأذهب به إلى النجف لأعطيّه لأستاذي لعلمي بحاجته

وكثيراً ما يصادف أن أُعطيته له عند باب منزله وأرجع، لكي لا أتأخر عن عملي وفي أحد المرات ذهبت إلى النجف وكنت آنذاك تعباً جداً ولم يكن السيّد في المنزل، فنمت عند باب داره، فإذا بالسيّد يضع يده على كتفي قائلاً بهدوء: ولدي! ولدي! فاستيقظت وسلّمتُ عليه، وبعد ما أعطيته الدرهم رجعتُ إلى كربلاء دون الدخول إلى داره»^(١).

«أعلم هذا الطفل سيموت قطعاً»

يقول الشيخ محمد شريعت نجل المرجع الديني آية الله شيخ الشريعة الأصفهاني: لم يكن يبقى لي ولد حي وكلّما رُزقت ولداً توفي بعد عدة أشهر. وكان شائعاً في أوساط العرب في النجف عادة هبة المولود الجديد إلى سيّد من ذرية رسول الله ﷺ ثم يأخذونه منه، وكانوا يعتقدون أنّ هذا الإعطاء والأخذ سبب لبقاء المولود على قيد الحياة. فألحّت عليّ زوجتي بإتيان هذا العمل ليبقى هذا المولود حياً، فاحتضنت ولدي وقصدتُ حرم أمير المؤمنين عليه السلام لأرى سيّداً أهب له هذا المولود، فرأيت من باب الصدفة السيّد علي القاضي خارجاً من الحرم، فتقدّمت إليه وسلمت عليه وعرضت عليه الموضوع، فأخذ السيّد الطفل بكل أدب واحترام وقال: إنّي قبلت منك هذا الطفل، ولكن أعلم أنه سيموت قطعاً ولم يبق من عمره إلّا أياماً معدودة وهو ما حدث بالفعل حيث توفي الطفل بعد عدة أيام^(٢).

«الشيخية من وجهة نظر السيّد القاضي»

يقول محيي الدين بن عربي والعرفاء بالله: إنّ معرفة الله ممكنة

(١) «عارف في الرحاب القدسيّة»، ص ٤٨.

(٢) «الكرامات المعنوية» لسيد الموسوي، ص ١١.

للإنسان وإنّ مقام الإنسان ودرجته وشخصيته هي التي تستطيع طيّ هذا الدرب ونيل لقاء المحبوب . كما أنّ لقاءه تعالى هو الفن في ذاته ، لأنّ عدم الفناء والمحو فيه يعني عدم حصول معرفته ؛ أمّا في حال تحقّق الفناء فليس هناك - غير الله - من شيء باقٍ ليعرف الله ومن ثم فإن الله سبحانه هو الذي يعرف نفسه .

ويقول الشيخية : إنّ معرفة الحقّ تعالى أمرٌ مُحال ، فالممكن هو معرفة أسمائه وصفاته ، وذلك أمر لا يشمل عامة الناس ، بل يختصّ بالكاملين منهم فحسب ، لذا فإنّ اسم الرازق والخالق والمحيي والمميت والسميع والبصير والعليم والقادر والحَيّ ، وما ينشأ منها يمثل حقيقة الأئمة المعصومين عليهم السلام والذين هم في مقام غير مقام الذات . كما أنّ غاية سير كلّ فرد من أفراد البشر هو الفناء في ذلك الاسم الذي يفضّله ويسمو عليه . ومن هنا ، فإنّ مقام ودرجات الناس تختلف بحسب اختلاف استعدادهم في الفناء في الأسماء الكلية أو الجزئية ، فهم في النهاية فانون بأجمعهم في الأسماء والصفات ، كما أنّ حقيقة الأسماء والصفات الإلهية في المراتب العالية تتجسّد في تلك الولاية الكلية المتحققة في المعصومين ، والإنسان الكامل هو الذي يستطيع أن يجد الطريق إليها ويكتسب معرفتها .

وتوجد في هذه النظرية إشكالات مهمة هي :

أولاً : إنها توعد سبيل المعرفة بالخالق ، حيث إنّ الله تعالى خلق السماء والأرض والأفلاك تمهيداً لمعرفة البشر .

وثانياً : إنّ هذه النظرية تجسّد حقيقة معنى التفويض ، أي إنّها تمثّل أجلى صورته .

فالمفوضة يعتقدون بأن الله سبحانه خلق العالم فأوكل تدبيره إلى الأئمة، أمّا هؤلاء الشيعة فيقولون: ليس تدبير العالم وحده في يدهم فحسب، بل إنّ خالق العالم وابتداعه والرزق والإحياء والإماتة والسلامة والمرض هي بأجمعها في أيديهم.

وهذا الوجه هو أقرب ما يمكن تصوّره في التفويض، حيث إنه يمثل عزلاً لله سبحانه من جميع الأمور والجهات وتلخيصه في زاوية من العالم بدون أثر ولا مسّى، وإبطالاً لفعله وهيمنته. وتعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

وثالثاً: إنّ من أجلى أقسام الشرك وأظهرها، فقد اعتبر أنّ هناك مؤثراً غير الله في جميع الموجودات.

ورابعاً: إنّ من أظهر أقسام الارتفاع والغلو، لأنّه لا يكتفي باعتبار المعصومين المصدر الوحيد للأمر، بل إنه لم يشرك الله معهم في ذلك، فقد أوكل هؤلاء أمر العالم بشكل مطلق إلى الأئمة واكتفوا بذكر الله على ألسنتهم، فهم في الحقيقة يعدّون الله سبحانه أجوفَ بلا معنى ولا مغزى.

خامساً: إنّ عبادتهم انصبّت على هذه الذوات المقدّسة فقط، فهم يسألون منهم حاجاتهم ويتوسّلون إليهم ويأملون بهم وحدهم، غافلين بل متناسين ورافقزين الله الواحد القهار الذي خلقهم والآخرين، والذي له الولاية عليهم كلّ آن.

وسادساً: أيّ دليل قائم على أنّ معرفة الله مختصّة بالأئمة المعصومين لا تتعدّاهم؟

فهؤلاء بشر وسائر الناس بشر أيضاً، وما أمكن لهؤلاء عقلاً هو ممكن لغيرهم أيضاً؛ كما ينبغي شرعاً - باعتبارهم أئمة - تمكّن المأموم

من إدراكهم في العمل والوصول، وإلا لما كان للإمامة من معنى.

وكان سماحة وصيِّ المرحوم القاضي: المرحوم آية الله الحاج الشيخ عباس القوجاني - أعلى الله درجاته - يقول: قلت يوماً لسماحة السيّد (الأستاذ القاضي): ما هو الإشكال في عقيدة الشيعة؟! فهم من أهل العبادة وأهل الولاية أيضاً، ناهيك عن أمر إظهارهم المحبة والإخلاص للأئمة عليهم السلام كما نفعل، كما أن فقههم فقه الشيعة؛ يضاف إلى ذلك عدّهم كتب الأخبار معتبرة وعملهم برواياتنا وإجمالاً فإننا مهما بحثنا عن إشكال في نهجهم الأخلاقي والعملي لم نجد ما يقدر فيه.

أجاب المرحوم القاضي: اجلب «شرح الزيارة» للشيخ أحمد الأحسائي غداً! فأحضرتُ له «شرح الزيارة» للشيخ الأحسائي في اليوم التالي، فقال: اقرأ! فقرأتُ فيها ما يقرب من ساعة كاملة. ثم قال: يكفي هذا! أتبيّن لك الآن ما هو الإشكال فيهم؟ إنّ الإشكال يكمن في عقيدتهم.

إنّ هذا الشيخ يحاول في كتابه هذا إثبات أن ذات الله سبحانه ليس لها اسم ولا رسم، فهي فوق صفاته وأسمائه وأنّ ما يتحقّق في العالم إنّما يتحقّق بالأسماء والصفات، وأنها هي المبدئة لخلق العالم وخلق آدم والمؤثّرة في تدبير شؤون هذا العالم في بقاء الحياة ودوامها.

فذلك الله ليس له اتحاد مع الصفات والأسماء، بل إنّها تعمل بصورة مستقلة، لذا فإن عبادة الإنسان ستكون موجهة لأسماء الله وصفاته، لا إلى ذاته التي لا يوصف ولا يتّسع لها الوهم والخيال.

ومن ثم فإن الشيخ الأحسائي يعتبر الله سبحانه مفهوماً فارغاً بلا تأثير وخارجاً عن الأسماء والصفات، وهذا عين الشرك.

أما العارف فيقول بأن ذات الله أسمى من الوصف، وأعلى من الخيال والوهم، وإنّ لها السيطرة والهيمنة على الأسماء والصفات؛ وإنّ جميع الأسماء والصفات موجودة في ذاته القدسية دون أن يكون لها حدود وجودية ولا تعيّنات وتقيّدات كما أنّ جميع الصفات والأسماء ترجع إلى الذات وأن المقصد والمبدأ والمنتهى هي ذاته، كلّ ما في الأمر أنّ ذلك يتمّ عن طريق الأسماء والصفات. ولذا فإننا نشير إلى تليك الذات بقولنا: ﴿وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١)، ولو لم يكن ذلك معلوماً لدينا - انتهى كلام سماحة السيّد القاضي.

ومن هنا، فإن الشيخية والحشوية الذين يرأسهم الشيخ أحمد الأحسائي يقفون في قطب مخالف للعرفاء، لذا نراهم يكتّون للعرفاء كلّ هذا العداً ويقسون في معاملتهم، باعتبارهم يسرون في نهجين مختلفين. ويلزم هنا ذكر نقطة مهمة، وهي أنّ على سالكي طريق الله أن يطوروا طريقهم تحت تربية وإشراف أستاذ كامل يمتلك مقام التوحيد والعرفان الإلهي؛ وممّن وصل بعد الفناء في الله إلى مرحلة البقاء بالله، وممّن انتهت أسفاره الأربعة وإلاّ ابتلوا بهذا المرض الذي ابتلي به الشيخ أحمد الأحسائي.

وفائدة الأستاذ هي أن يجتاز بهم المراحل والمنازل الخطرة في هذا الوادي، وهي عبارة عن الأبالسة وطغيان النفس الأمّارة وأخيراً الاستقلال الوجودي والذاتي لنفس السالك، والنظر إلى الأسماء والصفات على أنّها مستقلة^(٢).

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٩. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

(٢) «الروح المجرد» ص ٢٠٧ - ٢١٢.

قال السيّد الحدّاد: «قال المرحوم السيّد القاضي: ما كان يُؤلّد لأبي وأمي ذكور، ثم توسّلا بحضرة حبيب بن مظاهر الأسدي، ونذرا قطعة قماش تُوضَع على قبره إن رُزقا ذكراً». قال السيّد الحدّاد: فَمَنَّ الله عليهما بمولود ذكر هو السيّد علي القاضي. وقال: كُلُّ يفتخر بأبيه وأمه إلاّ أبويه فإنّهما يفتخران بولدهما ويستمدّان منه، فكان والده يقول له: بُنيّ إن الناس يفتخرون بأنسابهم، ولكني أفتخر بك وأعتزّ بذلك وشرفي منك وكان والده مساء يأتيان ويطلبان من ولدهم اللطف والمحنة لينالوا من بعض الإفاضات القدسية والأنوار البهية التي لديه.

ويذكر عنه السيّد الحدّاد قصة طريفة: أنه جاء في إحدى الأيام لسوق المشراق يريد شراء شيئاً من الشاي لأنّه كان عازماً على أخذه معه إلى مسجد الكوفة فجاء إلى العطار وهو المرحوم الشيخ محمد الشيرازي فوزن له التنباك عوض الشاي. فقال السيّد (القاضي) - رضوان الله تعالى عليه -: قلتُ في نفسي، إني قلت له: زِنْ لي شايّاً فوزن لي التَّنْبَاكُ! حتماً إنّ في ذلك خير ومنفعة؛ فأخذ منه التنباك وقال للعطار: زِنْ لي شايّاً، فوزن له ولما قدم إلى مسجد الكوفة وجد أحد الدراوشة في إحدى زوايا المسجد قد حَظَرَ غليونه وأشعل الفحم وهو يخاطب الجليل قائلاً: سيدي! كم مرّة أقول لك: إني أريد تنباك؟ ولما رآه بتلك الحالة أخرج التنباك من كُمّه وناولَه ففرح الدرويش كثيراً^(١).

«دعاء الاحتجاب على نقل المرحوم السيّد القاضي»

يقول العلامة الطهراني: كان يقرأ (السيّد هاشم الحدّاد) هذا الدعاء عند الرقود، كما كان يكثر قراءته في قنوت صلاته:

(١) «عارفٌ في رحاب القدسيّة»، ص ٩٢.

اللَّهُمَّ يَا مَنْ احْتَجَبَ بِشُعَاعِ نُورِهِ عَنْ نَوَاطِرِ خَلْقِهِ، يَا مَنْ تَسَرَّبَلَ بِالْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ وَاشْتَهَرَ بِالتَّجَبُّرِ فِي قُدْسِهِ، يَا مَنْ تَعَالَى بِالْجَلَالِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ فِي تَفَرُّدِ مَجْدِهِ، يَا مَنْ انْقَادَتْ لَهُ الْأُمُورُ بِأَرْمَتِهَا طَوْعاً لِأَمْرِهِ، يَا مَنْ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُونَ مُجِيبَاتٍ لِدَعْوَتِهِ، يَا مَنْ زَيَّنَ السَّمَاءَ بِالنُّجُومِ الظَّالِمَةِ وَجَعَلَهَا هَادِيَةً لِحَلْقِهِ، يَا مَنْ أَنْارَ الْقَمَرَ الْمُنِيرَ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ بِلُطْفِهِ، يَا مَنْ أَنْارَ الشَّمْسَ الْمُنِيرَةَ وَجَعَلَهَا مَعَاشاً لِحَلْقِهِ وَجَعَلَهَا مُفَرِّقَةً بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يَا مَنْ اسْتَوْجَبَ الشُّكْرَ بِنَشْرِ سَحَائِبِ نِعَمِهِ!

أَسْأَلُكَ بِمَعَاقِدِ الْعِزِّ مِنْ عَرْشِكَ وَمُنْتَهَى الرَّحْمَةِ مِنْ كِتَابِكَ، وَبِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ وَاسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، وَبِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ أَبْنَيْتَهُ فِي قُلُوبِ الصَّافِينَ الْحَافِينَ حَوْلَ عَرْشِكَ، فَتَرَاجَعَتِ الْقُلُوبُ إِلَى الصُّدُورِ عَنِ الْبَيَانِ بِإِخْلَاصِ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَتَحْقِيقِ الْفَرْدَانِيَّةِ، مُقَرَّةً لَكَ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَإِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي تَجَلَّيْتَ بِهِ لِلْكَلِيمِ عَلَى الْجَبَلِ الْعَظِيمِ، فَلَمَّا بَدَأَ شُعَاعُ نُورِ الْحُجُبِ مِنْ بَهَاءِ الْعَظَمَةِ خَرَّتِ الْجِبَالُ مُتَذَكِّدَةً لِعَظَمَتِكَ وَجَلَالِكَ وَهَيْبَتِكَ وَخَوْفاً مِنْ سَطَوَتِكَ رَاهِبَةً مِنْكَ. فَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ.

وَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي فَتَقْتَ بِهِ رَتَقَ عَظِيمِ جُفُونِ عِيُونِ النَّاظِرِينَ، الَّذِي بِهِ تَدْبِيرُ حِكْمَتِكَ، وَشَوَاهِدُ حُجَجِ أَنْبِيَائِكَ، يَعْرِفُونَكَ لِفِطْنِ الْقُلُوبِ وَأَنْتَ فِي غَوَامِضِ مَسَرَّاتِ سَرِيرَاتِ الْغُيُوبِ.

أَسْأَلُكَ بِعِزَّةِ ذَلِكَ الْإِسْمِ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَصْرِفَ عَنِّي جَمِيعَ الْآفَاتِ وَالْعَاهَاتِ وَالْأَغْرَاضِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ

وَالشُّكَّ وَالشَّرْكَ وَالْكَفْرَ وَالشَّقَاقِ وَالنِّفَاقِ وَالْغَضَبِ وَالْجَهْلِ وَالْمَقْتِ
وَالضَّلَالَةِ وَالْعُسْرِ وَالضِّيقِ وَالْفَسَادِ وَحُلُولِ النَّقْمَةِ وَشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ وَعَلَبَةِ
الرِّجَالِ؛ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، لَطِيفٌ لِمَا تَشَاءُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ^(١).

ولقد سجّل الحقيّر في شريط صوتيّ هذا الدعاء بعين هذه الألفاظ
على اللسان المبارك للمرحوم الحاج السيّد هاشم؛ وباعتبار أنّه قد سُمع
أيضاً من التلامذة الآخرين للمرحوم القاضي، فيتّضح أن أصله كان من
المرحوم القاضي^(٢).

«دعاء لدفع العدو»

قال المرحوم السيّد (القاضي): إنّ قراءة ﴿كَهَيْعَصَ﴾^(٣)، ﴿حَمْدَ

عَسَقَ﴾^(٤)، ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾^(٥)

مفيد لدفع الأعداء.

وكان يقول: من الحسن أن ينقش على عقيق: ﴿يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنَ

الرَّحِيمَ﴾، ﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾،

﴿كَهَيْعَصَ﴾، ﴿حَمْدَ عَسَقَ﴾، ثم يُصاغ منه خاتم فيتختم به.

(١) هذا الدعاء موجود باختلاف يسير في اللفظ في «مُهْج الدعوات» للمرحوم السيّد ابن
طاووس، ص ١٠٨، الطبعة الحجرية، رواه عن محمد ابن حنيفة عن رسول
الله ﷺ ونقل له آثاراً أو خواصاً عجيبة. ورواه كذلك في «بحار الأنوار»، ج ١٩،
ص ١٨٣، طبعة الكمباني، عن محمد ابن الحنفية عن الرسول الأكرم ﷺ وأورده
كذلك الشيخ بهاء الدين العاملي في «الكشكول» ص ٣٠٣ و ٣٠٤، الطبعة الحجرية.

(٢) «الروح المجردة»، ص ٢٩٣ - ٢٩٥.

(٣) سورة مريم، الآية: ١.

(٤) سورة الشورى، الآيتان: ١ - ٢.

(٥) سورة طه، الآية: ١١١.

وكان يقول: لو نقش على عقيق: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ونقش على وجهه الآخر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ﴿وَعَنْتِ أَوْجُهُ إِلْحَى الْقَيُومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، ﴿كَهَيْعَصَ﴾، ﴿حَمَدٌ﴾ (١) عسق، ثم صيغ منه خاتم فتختّم به لكان حسناً.

ويقول: قال المرحوم السيّد (القاضي): من عقد أصابعه واحداً بعد الآخر أمام عدوّه، بحيث يقرأ عند عقد كلّ إصبع حرفاً من حروف ﴿كَهَيْعَصَ﴾، ﴿حَمَدٌ﴾ (١) عسق، بحيث يتمّ عقد أصابعه، ثم يفتحها أمام عدوّه فإنّ شر عدوّه سيُدفع عنه (١).

«لا تَفْشِ السِّرَّ فَتُبْتَلَى!»

إنّ أعلى ثمرات الأستاذ هي أن لا يدع تلميذه متهوراً مطلق العنان، كما أنّ من المحال أن تبدر من التلميذ مثل هذه الكلمات مع تحقّق المعاني العرفانية السامية فيه. ولم يكن الحسين بن منصور الحلاج يمتلك أستاذاً، وكان ذلك باعثاً على تعرّضه للأخطار. وكان بابا طاهر العريان يقول بنظير هذا المعنى:

به هر ألفی اَلِفِ قَدّی بر آیو اَلِفِ قَدّمِ که در اَلِفِ آمَدُسْتُم
[يقول: «يظهر في كلّ اَلِفِ عام عارف فريد، وأنا في هذا الألف ذلك العارف»!].

كما يقول سعدي الشيرازي ليس عن طريق التوحيد والعرفان بل من جهة ادّعاء الرفعة في الأدب والبلاغة:

هر کس به زمانِ خویشتن بود من سعدي آخر الزمانم
[يقول: «لقد كان لكلّ زمانه وعصره، لكنني سعديّ آخر الزمان»!].

وكان سماحة الحاج السيّد الهاشم يرفض طريقة الحلاج ويقول: إنّ هناك مطالب فيما نقل عنه تدلّ على نقصانه ولم يرد من صدر الإسلام إلى الآن شخص له جامعية وشمول المرحوم السيّد (القاضي) ولم يعهد عنه أبداً أو عن أحد من تلاميذه مثل هذه الأمور.

ولقد قال المرحوم السيّد (القاضي) لي يوماً: أيها السيّد هاشم! لا تُفش السرَّ فتُبتلى! سيأتي يوم يقصدونك فيه من الأطراف والأكناف فيقبّلون عتبة بابك!

وكان يقول: لقد قمتُ خلال عمري كلّ بإفشاء سرّ مالمرة واحدة فقط، وكان ذلك في الحقيقة نابعاً من الحياء، ولا أزل حتى الآن أعاني من ذلك بعد مرور عشرات السنين.

إنّ أساس مطالب منصور الحلاج هي نفس مطالب سائر العرفاء، ليس لديه شيء آخر دونهم، لكنّه كان مفضياً للأسرار الإلهيّة، فأوقع جمعاً من الناس في الفتنة والفساد، فرُقي برأسه إلى المشنقة^(١).

«كانت للقاضي يد طولى في علم الحروف»

لقد ذكر كثير من العلماء الحقيقيين الصادقين مطالب مدهشة تشير العجب في باب أسرار الحروف، وقاموا وباستخراجات بديعة منها، وبالإخبار عن الغيب والاطّلاع على الضمائر. وكان المرحوم القاضي المقدم والبارز في هذا الفنّ في زمانه كما كان ابنه الأكبر المرحوم السيّد مهدي القاضي رحمة الله عليه (الذي حظّ رحاله أخيراً في بلدة قم الطيبة وانتقل هناك إلى الرحمة الأبديّة) في هذا العلم أستاذاً لا نظير له، كما كان أستاذاً عزّ مثيله في خط النسخ أيضاً، حيث إنّ الكتابات على الحجر

في أطراف محلّ إيداع الأحذية في حرم أمير المؤمنين عليه السلام وفي مدرسة آية الله البروجردي وغيرهما كانت بخطّه . وقد ذهب الحقير مرات عديدة للقاءه بعد إبعاده من العراق وتوطّنه في قم ، حيث ربطت بيننا علاقات المودة والصفاء وكانت لديه حكايات شيقة عن اكتشافات الحروف وأسرار الأعداد، حتى أنّه قال: إنّ لديّ ابتكارات في هذا الفنّ، وأبي المرحوم القاضي أعلم منّي، فقد كنت أعجز عن بعض الاستخراجات العسيرة ثم أوفّق إلى حلّها بالتوسّل بأمير المؤمنين عليه السلام وبالأوراد والأدعية، فأتشرف بالمثول في محضر أبي راغباً في إعلامه بهذه الاكتشافات وطريقة حلّها، فيتّضح أن أبي قد بحث هذه المشكلة قبلي وتوصّل إلى حلّها!

«القاضي وما أدراك القاضي!»

قال السيّد هاشم الحدّاد: «إنّ السيّد القاضي كان يُسأل: لماذا لا تولّف مؤلّفاً ينتفع به أهل الطريق إلى الله؟ فكان يجيب: لم يترك السّابقون شيئاً لم يذكره».

وقال: «إنّ المرحوم كان يحثّ كثيراً على أداء الفرائض بوقتها وخصوصاً صلاة المغرب وكان يقول لي: سيد هاشم! صلاة المغرب داريها مثل ما أتداري ماي عينك»^(١).

وقال: «كان المرحوم (القاضي) قوياً في مبدئه فلديه قوّة مبدأ لا يحيد عنه ومن الأمثلة على ذلك: أنّه جاءني إلى داري في كربلاء ولمّا أردنا الخروج لحقت ابنتي بنا وكانت صغيرة جداً قد لا تتجاوز الخمس سنوات، فاستأذنت منه لإرجاعها إلى البيت، فقلت لها كلمة غير مناسبة

(١) أي: حافظ على صلاة المغرب مثل ما تحفظ عينك من أين يصيبها الأذى.

فلَمَّا سمعها مِنِّي ثارت أعصابه وتألَّم كثيراً قائلاً: كيف يحقُّ لك أن تتفوّه بهذا الكلام وهي قطعة من جسم رسول الله ﷺ.

فقلت له: مولاي إنَّها ابتتي! قال: وإن كانت فلم يكن لك الحقُّ أن ترميها بمثل هذه الكلمة أليست مسلمة فضلاً عن كونها علويّة، فليس لك الحقُّ بطعن أحد من المسلمين.

وقال السيّد هاشم الحدّاد: «كان للسيّد المرحوم (القاضي) رفقة مع السيّد أحمد الكربلائيّ الذي هو من تلاميذ المرحوم ملاّ حسين قلبي الهمداني وهذا المرحوم كان من تلاميذ المرحوم الشوشتري وكان المرحوم السيّد القاضي يقول: كلّ ما وصل لي فقد وصل لي من أبي»...

وقال: «كانت للمرحوم السيّد القاضي رابطة قويّة بالإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ففي أحد الأيام قال لي: كلّ مرضٍ من الصحن المطهر قد بثُّ فيه».

سُئِلَ السيّد الحدّاد: كيف كان السيّد المرحوم يعلم تلاميذه؟ قال: «يعلم كلّاً حسب وضعه ويشير إلى الرياضات الروحية كلّاً حسب استعداده»^(١).

«كان القاضي من معجزات الدّهر!»

يقول الأستاذ حسن زاده الآملي: «لقد كان آية الله العظمى العارف العظيم الشّأن والفقير الكبير وصاحب المكاشفات والكرامات، المرحوم الحاج السيّد الميرزا عليّ القاضي التبريزي، هو أحد الأساتذة الكبار للعلامة الطباطبائي في النجف الأشرف، وقد ذكر العلامة الشيخ آقا بزرگ

(١) «عارفٌ في الرحاب القدسية»، ص ٩٤-١٠٠.

طهراني رحمته الله شرح حاله وأسماء بعض أساتذته في «طبقات أعلام الشيعة»^(١)، فقال: «هو السيّد الميرزا علي آغا ابن الميرزا حسين ابن الميرزا أحمد ابن الميرزا رحيم الطباطبائي التبريزي القاضي، عالم مجتهد، تقّي ورع، أخلاقي فاضل... وقد دامت المودة والصحبة بيننا عشرات السنين، فرأيتُه مستقيماً في سيرته، كريماً في خلقه، شريفاً في ذاته... الخ، له تفسير القرآن من أوّله إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾»^(٢).. الخ، ولوالده تفسير أيضاً، وببيتهم بيت فضل وتقى قديم» (انتهى ملخصاً).

كان القاضي المذكور من معجزات الدّهر ومن نجله الجليل - مصداق - الولد على سرّ أبيه - السيّد مهدي القاضي الطباطبائي رحمته الله والمرحوم آية الله الشيخ محمد تقّي الأملي - رضوان الله عليه - وسماحة العلامة الطباطبائي - مدّ ظله العالي - وأخوه الماجد حضرة آية الله السيّد محمد حسن إلهي القاضي الطباطبائي (قدّس سرّه) ولكلّ منهم حق عظيم عليّ وقد دوّنت بعض الوقائع المحيرة العجيبة عن هذا العالم وأوكل نقلها إلى وقت آخر.

ومن الكلمات المؤثرة واللطيفة للمرحوم الحاج السيّد علي القاضي: «يستحقّ أن يصرف الإنسان نصف عمره في البحث عن كامل».

وما قاله المرحوم الشيخ آقا بزرك في حقّ المغفور له القاضي: «فرأيتُه مستقيماً في سيرته». هي كلمة قيّمة جداً، لأنّ الاستقامة من أهمّ الأعمال في السلوك إلى الله وأنها سبب نزول البركات والفيض الإلهي:

(١) «أعلام الشيعة» ١/ ١٥٤٥، القسم الرابع، أعلام القرن ١٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٢٠) (١) و (٢).

«السبب في اختيار آية الله الشيخ عباس قوجاني وصياً للمرحوم القاضي؟»

كان السيّد (هاشم الحدّاد) يقول: ينبغي أن يكون الأستاذ ممتلكاً لمقام التوحيد. كما أن الإنسان لا يمكنه اتّخاذ أكثر من أستاذ واحد في زمن واحد، أمّا عند موت الأستاذ فيمكنه الرجوع إلى غيره، على أن يكون الأستاذ الجديد - بدوره - ممتلكاً لمقام التوحيد. على أن شأن الذين أستاذين فيأخذون التعليمات من هذا وذاك، أو أن يرتبطوا بهما سوياً، كشأن مريض يراجع طبيبين معاً وفي عرض أحدهما الآخر وهو عمل لن يعقب إلاّ الهلاك كما أنه أمر مذموم شرعاً وعقلاً وشهوداً...

وقد سئل السيّد (الحدّاد) مرات عديدة: ما السبب في عدم اختياركم وصياً للمرحوم القاضي - أعلى الله مقامه - في الأمور العرفانية والسلوكية والتوحيدية واختياره سماحة آية الله الحاجّ الشيخ عباس القوجاني هاتف ليكون وصيّيه في ذلك؟

فكان يجيب: الوصاية قسمان: ظاهريّة وباطنيّة.

فالوصيّ الظاهر هو الذي يجعله الأستاذ وصيّيه أمام الملاء العام، فيكتب بذلك ويؤمّضه ويعلّنه. وحسب ذوق المرحوم القاضي الذي كان عالماً جامعاً ومجتهداً وحائزاً للرياستين في العلوم الظاهريّة والباطنيّة، فإنّ على الوصي حتماً أن يجوز العلوم الظاهريّة من الفقه والأصول

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٠-٣٢.

(٢) «في سماء المعرفة» ص ٢١-٢٢.

والتفسير والحديث والحكمة والعرفان النظريّ؛ منعاً لانكسار سد الشريعة ولئلاّ يكون هناك خطّان ومنهجان .

وهذا هو المبدأ الذي كان المرحوم القاضي يعتمد عليه كثيراً فكان يحسب للشريعة الغرّاء حسابها بدقة كبيرة وكان بنفسه رجلاً متشرّعاً بتمام المعنى ومعتقداً بأنّ الشريعة هي السبيل لأدرك الحقائق العرفانية والتوحيدية . وكان جاداً في هذا الأمر، بحيث لم يكن ليفوته أبسط سنة وعمل مستحبّ، حتى قال بعض المعاندين :

إنّ هذه الدرجة من الزهد والإتيان بالأعمال المستحبة التي يقوم بها القاضي لا تنبع من الإخلاص، بل إنّه يحاول إظهار نفسه بهذا الشكل وبهذه السمائل والأوصاف فهو رجل صوفيّ محض لا يعير لمثل هذه الأمور اهتماماً!

وعلى هذا الأساس فقد كان للمرحوم القاضي التفات إلى العلوم الظاهرية، أما الأمر الآخر فهو أنّ العالم الدارس لا يمكن لأحد خداعه . ولو صار أساس تعيين الوصيّ من غير العلماء أمراً رائجاً ومعهوداً فما أحرى أن يدّعي المعرفة كثيرٌ من الشياطين فيجرّون الخلق إلى اتّباعهم ويسقطون البسطاء السذج في حبالهم بحيث يستحيل إقناعهم بعد ذلك بخطئهم بأيّ دليل أو منطق . ومن ثم فقد اختار المرحوم القاضي من بين تلامذته الحاجّ الشيخ عباس، الذي كان رجلاً عالماً مجرداً عن هوى النفس وقد عانى الآلام والمشاقّ والمحن فحفظ جلال ومقام ومكانة المرحوم الأستاذ القاضي عن أكمل وجهٍ وأتمّه .

أمّا وصيّ الباطن فهو الذي أكمل باطنه بكمالات الأستاذ، فصار يمتلك معرفة شهوديّة وقدرة قياديّة، باطنية وسرية، على الرغم من أن الأستاذ لم يقدّمه للآخرين ولم يُذع أمره، لأنّه يمتلك في الباطن السيطرة

على النفوس - شئت أم أبت - فهو يهدي اللاحقة إلى أمر الله ويراقب طريقهم وسلوكهم ويتولى رعايتهم .

فوصى الظاهر بعمل في الظاهر بمقتضى وصايته، أما وصي الباطن فيعمل في الباطن فإن عملاً سويًا كالتوأم، ظهرت منافع لا تعد ولا تحصى، وتفتحت ورود بديعة رائعة من براعم بستان التوحيد .

إن وصي الظاهر يقبل الأفراد الطالبيين للسلوك ووصي الباطن ينتقي منهم وينتخب؛ لذا فلو انكشف نفاق الأفراد الذين خضعوا لتربية وصي الظاهر مدة، فإن وصي الباطن لن يقبلهم منذ البداية ومن ثم فإنهم سيفقدون رغبتهم وحماسهم بعد حين فيرجعون، أو أنهم يلحون إلى العناد لا سمح الله .

أما التلامذة الحقيقيون فيقوم بأمر هدايتهم وإرشادهم عن طريق الباطن، فيتعرفون - باعتبارهم أهل رغبة صادقة ونية حسنة - على وصي الباطن وينهلون من تعاليمه . وعليه، وبهذا البيان فإن أستاذ الظاهر وأستاذ الباطن موجودان معاً، يؤيد أحدهما الآخر ويدعمه، وهما يتحلمان جزءاً كبيراً من مسؤولية تقدم التلاميذ وإيصالهم إلى المقصد الأصلي . وينبغي حتماً في هذه الحال أن لا يقع خلاف بين أستاذي الظاهر والباطن، لأن الاختلاف دليل على عدم صحة الطريق - انتهى كلامه مجملًا^(١) .

يقول آية الله حسن زادة الآملي: «... لعل هذه الخاطرة التي أذكرها الآن قد قرأتموها في كتاباتي الأخرى، أو سمعتموها في أقوالي السابقة؛ وهي أنني عندما ذهبت بمفردي إلى محضر حضرة آية الله الشيخ محمد تقي الآملي - رضوان الله تعالى عليه - وقد كان أحد أساتذتي أيضاً وكان ذلك

اليوم عطلة، فتناولنا أطراف الحديث وقال عندما كنّا في النجف الأشرف كنّا نتلمذ أنا والعلامة الطباطبائي ومجموعة أخرى عند حضرة آية الله الحاج السيّد علي القاضي - رضوان الله عليه - وكان للعلامة الطباطبائي في ذلك الوقت في النجف مكاشفات عجيبة ومحيرة وقد أخبرني بها نفس الشيخ الأملي في زمان حياة العلامة الطباطبائي وقال لي حجة الإسلام حضرة السيّد مهدي القاضي - رضوان الله عليه - وهو ابن حضرة آية الله القاضي: «كان أبي يقول لي مراراً: إنّ الإنسان لا بدّ أن يتدرّج في صعوده البرزخي حتى يعلم أسرار الحروف وأسرار الكلمات ويطلع على حقائق الأشياء فلا بدّ أن يتدرّج في صعوده البرزخي ويخرج من هذه الحالة الطبيعية والعادية للناس العاديين»^(١).

«البحث عن عارف كامل لأجل الكمال النفسي»

قال آية الله الحاج الشيخ محمد تقي الأملي رحمته الله: «... حتى سنوات ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين (١٣٤٨ هـ ق)، وتسع وأربعين (١٣٤٩ هـ ق)، وخمسين (٣٥٠ پ هـ ق)، شعرتُ بتعب وملل شديد، لا أني كنت مستغنياً عن الدرس والبحث، بل سأمتُ من الممارسة الكثيرة للدرس والتدريس ومجالس البحث والتقرير التي كنا نعقدّها قرب الحرم في الصحن المطهر، إضافة إلى أنّي لم أجد في نفسي الكمال النفسي، بل لم أكن أعلم سوى بعض الملفات القابلة لآلاف الاعتراضات، فكنت دائماً أقضي وقتي متعباً وأفكر بالتعرّف على إنسان كامل أجد ضالتي عنده، وكلّما جلست مع أحدٍ أحاول التجسّس بأدب وخضوع لعلّي أستطيع الوصول إلى هدفي الحقيقي.

وفي هذه الأثناء التقيت بسالك رثّ الهيئة، كنت أقضي الليالي معه في الحرم المطهر لحضرة مولى الموالى - أرواحنا فداء عتبه - وبرغم أنّه لم يكن كاملاً إلاّ أنّي استفدت من الحديث معه .

حتى وفّقت لإدراك إنسان كاملاً، والتقيت بشمس بين الظل، فاستفدت من أنفاسه القدسية وكانت لي مشاهدات عندما كنت وحيداً في الليل في مسجد الكوفة والسهلة، فأغلقت تدريجياً باب المراودة مع الناس، وتوفّقت عن حضور مجالس البحث، وتركت الدروس التي كنت أدرّسها .

وبقيت عدة سنوات على هذه الحال، حتى هزّني الشوق للعودة إلى طهران وبعد استخارة المعبود تحرّكت من النجف الأشرف في شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وخمسين (١٣٥٣ هـ ق) ووصلت إلى طهران في أواخر الشهر المذكور وبقيت دائماً أتجرّع الغصص والأحزان وأتحرّق وأنصهر من وقائع الدّهر، لا حال مستقرّ عندي ولا باب فرار، ولا رغبة في عمل ولا دنيا ولا آخرة ﴿ هَذَا مَا كُنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ ﴾^(١) اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً^(٢) .

توضيح بعض النقاط من العلامة حسن زاده الآملي : سألت حضرة : من كان هذا السالك رثّ الهيئة؟ فلم يذكر اسمه، بل أجاب بهذا المقدار فقط : «إنّه كان إنساناً جيداً لكنّه لم يلبي حاجتنا» . سألت حضرة : من كان هذا الإنسان الكامل، وأي عالم جليل بحيث خضعتم وتواضعتم وسلّمتم له، وما كلّ هذا الإجل الذين تذكرونه به؟ فقال : «هو حضرة الحاج السيّد علي القاضي الطباطبائي التبريزي (قدّس سرّه)»^(٣) .

(١) سورة التوبة، الآية : ٣٥ .

(٢) «في سماء المعرفة» ص ١٨٧ .

(٣) «في سماء المعرفة» ص ١٩٤ .

«أنا أعلم ما هي الكلمة»

التلميذ (العلامة الطهراني): هل تتذكرون شيئاً عن المرحوم القاضي رحمة الله عليه حول قائم آل محمد الإمام الحجة ابن الحسن العسكري - أرواحنا فداء - وكيفية ظهوره؟

العلامة (الطباطبائي التبريزي): في الرواية أنّ القائم عندما يظهر يبدأ دعوته من مكّة ما بين الركن والمقام، يسند ظهره إلى الكعبة ويعلن دعوته، فيجتمع له ثلاثمائة وستون نفرًا من خواصّه.

كان أستاذنا القاضي رحمة الله عليه يقول: وفي هذه الحالة يقول لهم شيئاً فينتشرون في أرجاء العالم ولأنّ الجميع يستطيعون طيّ الأرض، فإنّهم يبحثون في كل نقطة من العالم ويعرفون بعدها أنّه لا أحد له مقام الولاية الإلهية المطلقة ولا مأمور بالظهور والقيام ولا المعرفة بكلّ الأسرار الإلهية إلّا صاحب الأمر عليه السلام.

وعندها يرجعون إلى مكّة ويسلمون له ويبايعونه كان المرحوم القاضي - رضوان الله عليه - يقول: أنا أعلم ما هي الكلمة التي سيقولها لهم الإمام فينتشرون في الأرض.

وقد قرأت في الروايات الشريفة أنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول: وعندي علم تلك الكلمة.

يقول المرحوم القاضي: من المسلّم أن بعض أفراد زماننا قد أدركوا محضر الإمام المهدي - عجل الله تعالى فرجه الشريف - وتشرفوا بخدمته.

أحدهم كان مشغولاً بالذكر والدعاء في مسجد السهلة في مقام صاحب الزمان، فرأى فجأة إمام الزمان في نور قويّ جداً وهو يقترب منه، فأخذته الأبّهة والعظمة إلى درجة أشرف على الموت وتقطّعت

أنفاسه، فأقسم على الإمام بالأسماء الجلالية لله أن لا يقترب منه أكثر. وبعد أسبوعين، كان هذا الشمس مشغولاً بالذكر في مسجد الكوفة فظهر عليه الإمام وأعطاه مراده وتشرف بلقائه.

يقول المرحوم القاضي: إن هذا الشخص هو الشيخ محمد تقي الآملي.

قال العلامة محمد حسين الطهراني رحمته الله: كان المرحوم الشيخ محمد تقي الآملي من علماء طهران البارزين وهو من الطبقة الأولى من حيث الفقه والأخلاق والمعارف. وكان يدرس الفقه والفلسفة من «منظومة السبزواري» و«الأسفار الأربعة» وصاحب حاشية «مصباح الهدى في شرح العروة الوثقى» وحاشية وشرح «المنظومة» للسبزواري. وكانت تربطه صداقة وزمالة علمية بوالدي. أدركت محضره المبارك مرّات عديدة فشاهدته عظيم الأدب، سليم النفس، بعيداً عن الأهواء ولم يتصدى للفتوى حتى آخر عمره ولم تُطبع له «رسالة عملية» وقد استفاد أيام شبابه في النجف الأشرف من دروس الأستاذ القاضي رحمة الله عليه في الأمور العرفانية وكان صاحب كمالات^(١).

«هل تشرفتم برؤية وليّ العصر (عج)؟»

كان السيّد (القاضي) يجري على لسانه كثيراً قول «يا صاحب الزّمان» بشكل خاص، وذلك في قيامه وقعوده، وبشكل عام عند تغيير حاله إلى حالة أخرى، سأله أحدهم يوماً: هل تشرفتم برؤية وليّ العصر أرواحنا فداه؟

فقال: عَمِيَتْ عَيْنُ تُفْتَحُ صباحاً من نومها فلا يكون أول نظرها إليه!

(١) «الشمس الساطعة»، ص ٣٠٧.

أقول: ما أشبه هذه الجملة بكلام المرحوم آية الله الحاج الشيخ محمد جواد الأنصاريّ الهمداني قدس الله تربته حين سُئل: متى يلاقي الإنسان صاحب العصر والزمان؟

قال: حين لا يختلف تأثير حضوره وغيبته لدى الإنسان^(١).

«محنة العرفان»

يقول آية الله السيّد عبد الكريم الكشميريّ رحمته الله: «كان السيّد القاضي مشهوراً بالعرفان في النجف، ولذا كان تلاميذه يحذرون من التردّد على بيت أستاذهم خوفاً من ألسنة المعاندين، فكانوا لا يدخلون داره إلى أن يفرغ الزقاق من المارّة. يقول السيّد عبد الكريم الكشميريّ أيضاً: كنت يوماً واقفاً مع السيّد القاضي في صحن مرقد أمير المؤمنين عليه السلام فرآني أحد فضلاء الحوزة وأخذ يهزّ رأسه أسفاً على وقوفي مع السيّد القاضي. وكان آية الله علي محمد البروجردي يقرر درس السيّد القاضي فمنعه أحد علماء النجف المعروفين من حضور درس السيّد القاضي وقال له: لا تذهب إلى هذه المجالس فتتخلّف عن الحصول على درجة الاجتهاد في علوم الحوزة في الفقه والأصول. فكان يأتي سراً ويحضر درس أستاذه.

«وظائف الطلاب»

يقول السيّد محمد حسن نجل السيّد علي القاضي: «فكان (السيّد القاضي) يؤكّد عليهم (رجال العلم والطلبة) بالمواظبة على حضور مجالس البحث والتحقيق، ويمنع حتى من الاعتكاف في جامع الكوفة الكبير إذا كان هذا الاعتكاف يعارض التحضير للدروس، و«المباحثة» والحضور في مجالس الدرس ومعاهده، ويتفقّد أصدقاءه ويسألهم عن

المسائل الجديدة المطروحة عند أساتذهم ومرشديهم. وأمّا غير الطلبة؛ فكان يوصيهم بمزاولة أعمالهم التجارية والكسب، وحسن الالتزام بالوظائف الشرعية والفقهية في الكسب والتجارة ولا يتقدم إليهم بعمل ينافي الكسب أو أوقاته، ويؤكد على تعهّد عملهم وحسن إداراته وتنظيمه حسب القواعد والأصول المرعية، دون أن يظهر عليهم الشذوذ في سلوكهم الاجتماعي والسوقي، أو يؤخرهم عن الاستفادة من أوجه الحلال المشروع، فالكاسب حبيب الله، والساعي في الكسب لغرض التوسعة على عياله كالمجاهد في سبيل الله... إلى آخر ما كان يوصي ويقول: كونوا بين إخوانكم كأحدهم، وعليكم بالرفق والمداراة في معاشرتهم واحذروا من التزمّت^(١).

«ما حقيقة طيّ الأرض؟»

التلميذ (العلامة الطهراني): ما حقيقة طيّ الأرض؟ وكيف تنطبق هذه المسألة مع موازين الفلسفة؟

العلامة (الطباطبائي التبريزي) حقيقة هي طيّ الأرض تحت أقدام الماشي. وكان أخي المرحوم السيّد محمد حسن الإلهي القاضي قد استفسر من روح المرحوم الحاج الميرزا علي آقاي القاضي - رضوان الله عليه - عن طيّ الأرض، وذلك بواسطة لتميذ له كان يحضر الأرواح (ليس بواسطة المرأة، ولا بالمنضدة المثلثة، بل كان يمسح بيده على عينيه فيحضر الروح فوراً) فأجاب المرحوم القاضي رحمة الله عليه بأنّ طيّ الأرض الآيات الست من أول سورة طه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِقَوْلٍ فَإِنَّهُ

يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ (١).

التلميذ: ما هو المراد من هذه الآيات؟ هل كان المرحوم القاضي يقصد من وراء هذا الكلام الحديث بطريق الإشارة والرمز، وهو يريد أن يقول إنّ طيّ الأرض يحصل من خلال الاتّصاف بالصفات الإلهية؟

العلامة: كلا، لقد كان أخى رجلاً ذكياً وحاذقاً؛ فكان يذكر الأمر بحيث كأنّه فهم بنفسه من هذه الآيات تعليمات طيّ الأرض.

وهذه الآيات عجيبة حقاً، وخاصة آية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (٨)، لأنها تجمع جميع الأسماء في الوجود المقدّس للحق تعالى، وليس لدينا آية جامعة مثلها في القرآن الكريم.

لقد كان المرحوم القاضي يتشرّف بالذهاب إلى كربلاء أيام الزيارة ولم يره أحد يركب السيارة أبداً، ولم يطلع أحد على هذا السرّ إلاّ أحد التجّار في سوق الساعة (السوق الكبير) حيث تشرف بالذهاب إلى مدينة مشهد المقدّسة، فشاهد المرحوم القاضي في مشهد وطلب منه إصلاح جواز سفره، فقام المرحوم القاضي بذلك. ثم عاد ذلك الرجل إلى النجف فباح بأمر رؤيته للسيد القاضي فغضب المرحوم القاضي بشدّة وقال: إنّ الجميع يعلمون أنّي كنت في النجف ولم أسافر.

قال العلامة الطهراني في هامش «الروح المجرّد»: نقل لي صديقي المعظم حجة الإسلام الحاجّ السيّد محمد رضا الخلخالي - دامت بركاته - الذي هو من علماء النجف اليوم هذه القصة (والسيّد الخلخالي ابن المرحوم حجة الإسلام السيّد الخلخاليّ وهو ابن أخت السيّد محمد الخلخالي المقيم في النجف الأشرف والمعروف بالزهد والعبادة

والمشهور في زمانه) ونضيف ممّا رواه التالي : عندما رجع ذلك التاجر من مشهد إلى النجف، قال لأصدقائه إنّ جواز سفره كان غير صالح ولم يتمكّن من ترتيبه في دائرة الشرطة، فذهب إلى القاضي ورجاه أن يحلّ له المشكلة وأعطاه الجواز، فقال له القاضي : إرجع غداً إلى مركز الشرطة وخذه من هناك! يقول : فذهبت في اليوم التالي وبالفعل حلّت المشكلة ورجعت إلى النجف فقال له أصدقائه : إنّ السيّد القاضي كان في النجف ولم يسافر، فأسرع الرجل إلى القاضي وأخبره ما جرى معه بالتفصيل، ولكن السيّد القاضي أنكر ذلك وقال له : إنّ الجميع يعلمون أنّني لم أسافر. أخبر التاجر بعض الفضلاء كالشيخ محمد تقي الآمليّ والشيخ علي محمد البروجرديّ والسيّد علي الخلخاليّ وغيرهم هذه القصة. فجاؤوا إلى السيّد وأخبروه بدورهم، ولكنه أنكر مجدداً وهناك أصرّوا عليه أن يعيّن لهم درساً في الأخلاق.

وفي ذلك الوقت كان المرحوم القاضي مجهولاً جداً، ولم يكن أحداً يعلم عن حاله شيئاً، وفي النهاية وافق على تعيين درس الأخلاق؛ وفي المرحلة الأولى انضمّ إليهم السيّد حسن المسقطي وغيره.

وفيما بعد انضمّ حضرة العلامة الطباطبائي والسيّد أحمد الكشميريّ والميرزا إبراهيم السيستانيّ وأخو العلامة السيد الإلهي وغيرهم.

وفي المرحلة الثالثة انضمّ الشيخ عباس القوجاني والشيخ محمد تقي القومنيّ الرشتي وغيرهم من فضلاء النجف الأشرف.

وسماحة آة الله الشيخ عباس القوجاني هو وصيّ المرحوم القاضي في المعارف والأخلاق وهو مقيم في النجف الأشرف حالياً، حيث يستفيد من محضره جماعة من الطلاب والأهالي وغيرهم. وهاك شاهدان

آخران على امتلاك المرحوم القاضي لطّي الأرض، الأول: أن سماحة العلامة الطباطبائي وسماحة الشيخ القوجاني نقل كلاهما أن المرحوم القاضي اعتاد أن يستقبل رفقاءه في منزله خلال شهر رمضان المبارك بعد حلول الليل بأربع ساعات، فيستمرّ مجلسه في الأخلاق والوعظ ساعتين، وكان الأمر على هذا المنوال في العشرة الأولى والثانية من الشهر؛ لكنّه كان يعطل المجلس في العشرة الأواخر فلا يراه أحد إلى آخر شهر رمضان.

ولم يكن مكانه معلوماً لأحد؛ وكان له أربع زوجات، إلا أنّه لم يكن يتواجد في بيت إحداهنّ، كما لم يكن يواجد في مسجد الكوفة أو مسجد السهلة اللذين كان يُكثر المبيت فيهما. وقد نقل سماحة العلامة الطباطبائي أمر اختفاء المرحوم القاضي في أوقات أخرى علاوة على شهر رمضان.

الثاني: ما رواه الشيخ القوجاني، حيث يقول: كان (المرحوم القاضي) قد جاء إلى كربلاء في سفر للزيارة، ثم حان وقت العودة، فقدمنا سوياً إلى موقف السيارات وكان ازدحام الناس بركوب السيارات الذاهبة إلى النجف شديداً، بحيث كانوا يتسلّقون على رؤوس ومناكب بعضهم البعض لركوب السيارة. فلما شاهد المرحوم القاضي الأمر، توجه إلى جانب الموقف (الكراج) بمنتهى البرود. وجلس على الأرض مُسنداً ظهره إلى الجدار وانهمك بتدخين سيجارة. أمّا نحن فصبرنا مدة جنب السيارات التي تأتي فتحمل المسافرين حتى حشرنا أنفسنا في إحداها بمنتهى المشقة وجئنا إلى النجف، ولم يكن لدينا علم بالمرحوم القاضي. وبالطبع فإنّ جميع هذه الأمور احتمالات لا متلاك المرحوم القاضي طي الأرض، إلا أنّ ذلك لم يُنقل عنه ولا عن غيره صراحةً^(١).

كان يكلفه بعض الإخوان الاستخارة بالقرآن، فحينئذ كان يقول (المرحوم القاضي): أقرأ عليك الآية الشريفة وخذ الرأي منه أنت لنفسك... كان يقول: أنا لا أستخير بالقرآن...

يقول السيّد محمد حسن نجل العلامة السيّد علي القاضي: «... كان هو (قدّس سرّه) يمتنع من الاستخارة بالقرآن الكريم لاختلاف وجوه معنى الآيات الكريمة وصعوبة تطبيقها على المورد والمقصود وكيفية استنباط الأمر أو النهي منها وهكذا يكون الإجمال والغموض فيه كثيراً والأمر بالعكس من ذلك في المسبحة والرقاع والبنادق، فهو أصرح وأبين، والأخبار الواردة فيها أصرح وأكثر وأقوى وأظهر. هذا إذا لم نرد الوقوف على نصوصها... كان هو (قدّس سرّه) يعلمها - أعني الاستخارة - لأولاده وأحفاده والصفوة من أصدقائه وبطانته والمجتمعين حوله للاسترشاد والاستمداد من تعاليمه وتوجيهاته، لغاية ولغرض السموّ الخلقي والنفسي؛ فكان يوصي بالالتزام بها في جميع المهام؛ بل وعند البدء بكل عمل حتى الأمور غير المهمّة، للتبرّك على الأقل، كعملية خاصة متيسّرة لمعرفة الصحيح من غير الصحيح من الأعمال.

كما ويوصي ويؤكّد للتأمل فيها، أكثر من كونها عملية دعائية تسيّحية خاصة نلوذ إليها كلّما واجهتنا مشكلة ما؛ فإنّ المأثور من جملة ما قرأنا وحفظنا عنه، من نظم ونثر، ومراسلات مع أصحابه الذين كان يسارهم في أموره؛ أنّها ليست ممّا تعنى بها العامة في كثير أو قليل؛ وإنّما هي لفتات خاصة يهتم بها أولئك النفر القليل، الذين خصصهم الله تعالى بالطافه، وأسبغ عليهم من نعمه الروحية والمعنوية، ما يفوق قلباً وقالباً ما في أيدي الناس.

أجل، إنّه كان يرى الاستخارة من جملة هذه الأمور الخاصة وفي أدق وأرقّ وأسمى معانيها أن لا يفكر الإنسان وحده ولا يصمم على عمل دون اللجوء إليها، لأنّها بمثابة الاستشارة والاستعانة بالله عزّ اسمه في أسمى معانيها، وأظهر آثارها.

فإنّ الإنسان عندما يستخير الله تعالى فكأنّه يتّجه إلى الأعماق، وإلى السبب الحقيقي ويغضّ الطرف عن الأسباب وظواهر الحياة، ليكشف الحقيقة، من باب «اللهم أرني الأشياء كما هي» أو ليكشف له ذلك على قدر قابليّته واهتمامه وتحقّقه وتوجّهه والتفاتة وصدق يقينه . . . ويكون هذا التوجّه والالتفات عملية نفسية خاصة تحمل نفسه على التدرب عليها وبمرور الزمن - ولو بقليل من التجربة - يدرك تأثير هذه العملية البسيطة في نفسه، ويعرف مدى أثر، وكيفية إيجاد الرابط بينه وبين الله تعالى وبمرور الأيام يتحول هذا الرابط إلى علاقة، ثم تقوى هذه العلاقة وتتسع إلى ما لا نهاية كلّما واجه أمراً ذي بال يحتاج فيه إلى الاستعانة والاستمداد من يد غيبيّة، وعالم بسرّات الأشياء، وواقف على خفايا الأمور؛ ثم يستمر في طريقه حتى يصل إلى حدّ ما قاله المعصوم: «المؤمن ينظر بنور الله» وإلى حدّ قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾^(١).

ولذلك كان يوصي بعدم التوكيل فيها، مع أن العامة - ولعلّ بسبب شعورهم الخفي بهذا المعنى - يוכלون أمر الاستخارة إلى من عرفوا من الأخيار والصالحين.

خلاصة القول: إنّ للاستخارة في نظره معنى أسمى ممّا تعرفه العامة، بل كان يريد لها حالة نفسية تستولي على جميع جوانب حياة الرجل

المؤمن، في غدوه ورواحه، نفيه وإثباته، وسواده وبياضه؛ يحسن ويشعر بحلاوتها في نفسه وروحه؛ كلما أمر عن طريقها بأمر أو نهى ويرى فيها الصدق والصواب^(١).

«سر بساط حضرة النبي سليمان ﷺ»

يقول العلامة الطباطبائي: «لقد سأل أخي حضرة القاضي - رضوان الله عليه - بواسطة تلميذه عن بساط حضرة النبي سليمان الذي كان يجلس عليه، ويسافر به إلى مغرب العالم ومشرقه، هل كان من وسائل ظاهرية مصنوعة، أم أنه من الإبداعات الإلهية التي لا علاقة لها بالأسباب الظاهرية؟ فأجاب المرحوم القاضي رحمة الله عليه، ليس لدي الآن أي فكرة، ولكن أحد الموجودين الذين كانوا في زمن النبي سليمان وقد تصدّى لهذا العمل موجود الآن، فلأذهب وأسأله. فذهب القاضي، وما إن خطا عدة خطوات حتى ظهر مشهد جبل، فما إن وصل إلى سفحه حتى ظهر شيء يشبه الإنسان. فسأله السيد القاضي وتحدث معه قليلاً، ولكن ذلك التلميذ لم يفهم شيئاً وعندما رجع السيد قال: إنه يقول إنه من الإبداعات الإلهية ولا دخل له بالأسباب الظاهرية»^(٢).

«ضيافة الأستاذ من تلميذه»

يقول حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ المروي - من تلاميذ السيد الكشميري -: قال الأستاذ آية الله السيد عبد الكريم الكشميري رحمه الله: ذهبت - كعادتي - لزيارة السيد القاضي فقدم لي تمراً، فلم أتناول منه شيئاً، واستفسر السيد القاضي عن علّة ذلك، فقلت: لا

(١) «معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف»، ١ / ٢٢٠ - ٢٣٢.

(٢) «الشمس الساطعة»، ص ٣٢٣.

أرغب في أكل التمر، فقال: هل ترغب في نوع آخر من التمر؟ فقلت: نعم، إني أرغب في التمر الديري كثيراً. وبعد مدة جاء إلى دارنا بلباسه العربي وقد ملئ جيب الدشداشة بالتمر الديري وأعطانيه^(١).

«اختبارُهُ من تلميذه»

أمر (المرحوم السيّد القاضي) أحد الحضّار في مجلسه - وكان من الشخصيّات العلمية المرموقة في الحوزة العلمية يحضر مجلسه للحصول على بعض التعليمات والاستشارة ببعض الإشارات واتفق أن دخل المجلس صعلوك قدر الملابس للتكدي، وكان هذا مريضاً بحيث إذا جلس لا يستطيع النهوض من مجلسه؛ نعم، أمره أن يقوم ويساعد هذا المسكين المريض في النهوض من مكانه؛ وكأنّ هذا العالم كبر عليه هذا التكليف والأمر، أو لأنّه ناداه باسمه دون أن يكنيه أو يعطيه اللقب المناسب له بين أقرانه، فتباطأ بامتنال أوامر الشيخ؛ فنهض الشيخ هو بسرعة من مكانه واحتضن ذلك الصعلوك وأوقفه على رجله وألبسه حذاء بيده وقاده إلى باب الدار وهو يحدثه ويلطفه، فخجل العالم وفارق المجلس مدة، ثم أخذ يتوسّل إلى أصدقائه ليسمحوا له بالعودة إلى مجلسهم، فسمع له بذلك فكان المرشد كلّما دخل هذا العالم مجلسه وأراد الخروج سبقه إلى حذائه وصفّه أمام رجله، مشيراً إلى أنّ هذا العمل لا يخلّ بمقام الرجل ولا يضعه من مرتبته؛ وأنّ حرمة العلماء محفوظة عنده وكانت النتيجة أنّ هذا العالم إذا دخل مجلس المرشد تأبّط حذائه لثلاً يفاجأ بقيام المرشد أمامه.

قلت: هذا العمل وأمثاله ربما كان يصدر منه، بل وقد تكرّر في

(١) نقلاً عن حديث إذاعي لحجة الإسلام المروي في ١٢٧/١/٧٨ هـ ش.

موارد كثيرة، ليلفت النظر إلى أنّ الوصول إلى المدارج العالية لا بدّ وأن يسبقه شيء من الرياضة النفسية، والتواضع، والتهديب الخلقي، ونكران الذات والإيثار؛ ولا يفتح الطريق لأحد بمجرد الحضور في جلسات أهل الحال كما كانوا يعبرون^(١).

«صحبة السيّد القاضي مع الفخّام»

يقول السيّد محمد حسن القاضي: «كان أكثر المقدسين ومن عرفوا بالزّهد والتقشّف يلبسون قباء أزرق، أو مصبوغ بلون أزرق فاتح وكان هو (قدّس سرّه) يمتاز عنهم، يفضل الملابس البيض، خصوصاً في الصيف (وفي النجف تسعة أشهر من السنة صيف)، ومن أدركنا منهم - أعلى الله مقامهم - أمثال الشيخ مشكور الحولاي ونجمله الشيخ حسين مشكور، والشيخ علي القمي والسيّد عبد الغفار الموسوي الذي كان يصلّي مكان الشيخ علي القمي في الجامع الهندي عند غيابه، والسيّد جمال الكلبايكاني الذي انتهت إليه الزعامة برهة قصيرة والشيخ زين العابدين والشيخ دعبيل وعدد غيرهم لا يحضرني أسماؤهم الساعة، كلهم كانوا يفضلون هذا اللون ويسمّونه - ولا أدري لماذا - «فدك» وهو لباس أو قباء الأخبار في النجف الأشرف (قماش أبيض مصبوغ بلون أزرق فاتح).

ولكنّه - كما قلت - كان (السيّد القاضي) يفضل اللون الأبيض، وكان له صديق فحّام في مدينة الكوفة؛ كان لازماً عليه أن يزور هذا الصديق في الشهر مرة على الأقل، فكان يذهب إلى حانوته، ويجلس على الأرض ولا يبالي وقد يطول المقام ساعات والفحّام لا يتوقف عن العمل كلّما جاءه عميل لشراء الفحم يقوم ويعطيه ما يريد من الفحم ويرتفع غبار

(١) «معجم رجال الفكر والأدب في النجف الأشرف»: ٢٧٨/١.

الفحم وهو جالس دون أن يعير أي اهتمام إلى ما يتناثر على ملابسه ووجهه من رذاذ الفحم؛ نعم، كان يشير بعصاه لنا - ونحن صغار - بعدم الدخول في الحانوت، خوفاً من إزعاج أمهاتنا.

وبعد أن ينتهوا من الحديث والنجوى، يغادر الحانوت وقد علاه البشر وتهللت أسارير وجهه وهو يتم بشفتيه بشيء لا نفهمه ويذهب إلى داره في الكوفة وزوجته (أم حسين) تستقبله بالصراخ ومما ترى عليه من أثر الفحم، وهو يهدؤها ويعدّها بمساعدتها في غسل الملابس.

وقد ذكر لي هذا السيّد مهدي القاضي، وكان يكبرني أكثر من عشر سنوات، مما يظهر أن صحبته مع هذا الفحم كانت منذ مدة طويلة. ومن الغريب أنّه ما كان يمتنع من المرور بالسوق والزقاق على مثل تلك الحالة...

نعم، الرياضة النفسية أو ترويض النفس على منح بعض الشؤون الاجتماعية وعدم المبالاة بالقواعد والأصول المرعية بين الناس، لغرض كبت جماع النفس وغلوائها وأنانيتها من لوازم الدخول في السلك، لكن لا إلى الحدّ الذي يخلّ بشخصية الرجل ومقامه الاجتماعي، أو يرمي بنوع من الخروج عن المألوف عند سائر الناس.

وتعيين هذا الحدّ من أصعب الأمور لدى العرفاء والأخلاقيين من الشيوخ والفقهاء - أعلى الله تعالى مقامهم - لأنّهم يقيمون ألف دليل ودليل على أنّ الشؤون الاجتماعية يجب مراعاتها والتعهد والالتزام بها، فللمؤمن من حرمة ومقامه الاجتماعي، ولا يجوز الإخلال به وتعريضه لقالة السوء وقد عرف بهذا في وسطه الذي كان يعيش فيه إلّا أنّ المرید الذي كان يلازم مجلسه كان يعلم أنّه لا محالة قد يقع ولو مرة واحدة أمام الاختبار...»^(١).

«الأسلوب التفسيري لدى الطباطبائي هو من السيّد القاضي»

المنهج التفسيري عند العلامة الطباطبائي (قدّس سرّه) (صاحب الميزان في تفسير القرآن) لقد كان طبقاً للأسلوب التفسيري لأستاذه في العرفان والعلوم الباطنية الإلهية: المرحوم آية الله الحاج ميرزا علي القاضي، وهو تفسير الآيات بالآيات؛ أي استنباط مفهوم ومغزى آية القرآن من القرآن نفسه. وقد كانت هذه طريقة المرحوم آية الله القاضي فقد كتب تفسيراً من بداية القرآن إلى سورة الأنعام، وكان يُعلّم تلامذته الكتاب الإلهي على هذا النحو. وكان أستاذنا المرحوم سماحة السيّد العلامة يقول كراراً: «إن هذا الأسلوب التفسيري الذي لدينا هو من المرحوم القاضي»^(١).

«مسلك العرفانيّ للسيد القاضي»

مسلكه العرفانيّ: كان مسلك أستاذه الأوحد المرحوم آية الحقّ وسيّد العارفين الحاج الميرزا علي القاضي، وهو مسلك أستاذه السيّد أحمد الكربلائي الطهراني، الذي كان يتبع مسلك أستاذه المرحوم آية الحقّ الآخوند الملاً حسين قلي الهمداني الدرّجزيّني - رضوان الله عليهم أجمعين - وهو مسلك معرفة النفس، الذي يتلازم مع معرفة الربّ وتدلّ على هذا الأصل الروايات الكثيرة وهو يحصل بعد عبور عالم المثال والصورة، وبعد عبور عالم النفس حيث عنْدَ الفناء عَنِ النَّفْسِ بمراتبها يَحْصُلُ البَقَاءُ بِالرَّبِّ؛ أمّا تجلي سلطان المعرفة فإنه سيحصل عندما لا يبقى من الآثار النفسانية في السالك أيّ وجود. ومن الشروط المهمة لتحصيل هذا الأمر، المراقبة، حيث يجب على السالك أن يحفظ آدابها

وشرائطها في كلّ مرحلة من المراحل، أو منزل من المنازل حسب المرحلة أو المنزل، بكلّ ما للكلمة من معنى. فبدون المراقبة تكون الأعمال والعبادات كالدواء الذي يتناوله المريض مع عدم الاحتراز من تناول الأطعمة المضرة التي لن تفيده شيئاً.

أما كليات المراقبة التي تختلف بجزئياتها حسب اختلاف المنازل، فيمكن اختصارها في خمسة أشياء:

صُمْتُ وَجُوعٌ وَسَهَرٌ وَعُزْلَةٌ وَذِكْرٌ بِهِ دَوَامٌ

ناتما مان جهان راكند اين پنج تمام

[يقول: صُمْتُ وَجُوعٌ وَسَهَرٌ وَعُزْلَةٌ ودوام الذكر، فهذه الخمسة ستجعل غير الكاملين في العالم كاملين]^(١).

الرسائل العرفانية والأشعار العالية من العلامة السيّد على القاضي (قدّس سرّه)

نتطرق في هذا الفصل إلى مجموعة من الرسائل التي كان السيّد القاضي قد أرسلها إلى أصحابه في فترات مختلفة وهي تتضمّن الكثير من الوصايا العرفانية ونذكر نماذج من أشعاره العالية لبعض المناسبات والوقائع.

«أنشد هذا الشعر ولم تبلغ سنه العشرين»

وادي السلام أم بقيع الغرقد	أول أولى عدة إلى الغد
فيه وصي المصطفى والمهتدي	في كلّ أمر ذي (ذوا) السبيل الأرشد
لا هجعت عيني بغير أرضه	وليتني في غيرها لم أرقد
تطايرت قلوبنا نحو الحمى	تطاير الفراش حول الموقد
يهيم قلبي نحوه منذ الصبا	كما تهيم النيب نحو المروء
أعد ساعاتي صباحاً ومساءً	يا ربّ قعرّب للرحيل موعدي ^(١)

إنّه حين أراد الدخول إلى العراق لأوّل مرة منع ومعه جمع من ذويه، فلم يفقد الحيلة في الحصول على الإذن. أنشد قصيدة وأرسل إلى الأمير

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام» للسيد محمد حسن القاضي، ٤٩/١.

الأعظم ذي السيف والقلم: حسن علي خان الكروسي، يطلب منه الإذن
لدخول بلاد الروم، وهو إذ ذاك صاحب ثغرهم ببلدة كرمانشاهان، وكان
دخوله إلى العراق لأوّل مرة سنة ١٣٠٨هـ ق.

تسابت الأفكار في مدح ماجد

فقصر ذو السبق الذي هو بارع

ونبطىء في رقي المفاهر والعلی

كلّ إليه مستعاد وراجع

وكيف يفی المدح الذکا بسنائه

وأنت لنا فيه مديل ورافع

سبقت إلى مجد فأحسنّت شربه

لك الكلّ فيه ذو اقتداء وتابع

طمعت إلى الجلي ولا شك نائل

بشملة مجد دونه المجد طامع

وقيل خصال حير اللب دونها

إذا اخضلّ ليل أنت كالشمس طالع

ورأفة آباء وهيبة سائس

لرق وأخلاق الملوک تقارع

لك القلم الملقاة من سيف أعزل

وسيفك قوس الله في الأرض قاطع

وقل ثنائي فيك يا كهف أهله

بذلك من أبواب فضلك قارع

فإن شئت فأطلب لي وصولاً إلى الحمى

بجنب الغري فالدموع هوامع

فإن منع الروم الدخول لأرضها

فقد غلبت قدماً فكيف تدافع

ولا حاجة لي غير هذا وإن لي

حفاظ عليّ عن مدح غيرك مانع

يقول السيد محمد حسن القاضي: «هذا ومما يذكر بهذه المناسبة

تمسّكه وتعشّقه بوطنه الجديد النجف الأشرف، أنه منذ أن دخل المدينة

المقدسة لم يخرج منها إلّا لزيارة سائر العتبات المقدّسة كربلاء

والكاظمين وسامراء، وذهب مرة واحدة إلى زيارة مشهد الرضا (عليه السلام)،

حوالي سنة ١٣٣٠هـ ق وبعد تشرفه بالزيارة عاد إلى طهران ومكث في

مدينة ري المعروف بـ «شاه عبد العظيم» برهة يظهر أنها كانت قصيرة وقد

عثرت على رسالة كان قد بعث بها إلى أحد إخوانه في النجف، جاء في

صدر هذه الرسالة أبيات من الشعر، ومنه يظهر أنّ تصدير الرسائل بالشعر

العربي كان دأبه منذ الشباب والكهولة وسنرى لذلك شواهد كثيرة فيما

سيأتي إن شاء الله تعالى وبما أنّ الكتابة عنده كانت سهلة جداً، لا يعني

بالقلم والمحبرة والمزبر كثيراً، أو لا يعني به أبداً، فهو يكتب بعدد

الثقات عادة أو أي نوع من الخشب يمكن أن يستفاد منه للكتابة، يظهر

ذلك جيداً من النموذج الخطي الموجود لدينا منه (قدّس سرّه)...

قلتُ لهذا السبب لم أتمكّن من قراءة أكثر هذا الشعر، وقد بخل عليّ

صاحب الرسالة بنسختها، غير أنني وبصورة مستعجلة نقلت منها هذه

الآبيات، أثبتتها هنا لأدلل على مبلغ تعلّقه بمدينة النجف الأشرف وتعشّقه

لها:

مستنقع يشقى لظى الأكباد

أبرد بعيش وفقوا برشاد

وإذا أخذت الكأس ثمة طمها

وعلى الحمى فأذكر وجيب فؤادي

واذكر بها وقفاتنا ومنازلاً

ومرابعاً فيها بجانب الوادي

واستنظرونا بالمآب فإننا

نرجو معاودة مع العواد

فالقرب بعد البعد أحلى مطعماً

والعود أحمد عند أهل البادي

ظشتان ما يومي أباكر للـ . .

سئماً ويومك صاحب الأنجاد^(١)

رسالة من السيّد القاضي (ره)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على الرسول المبين ووزيره
الوصي الأمين وأبنائهما الخلفاء الراشدين والذرية الطاهرين والخلف
الصالح والماء المعين، صلى الله وسلّم عليهم أجمعين .

تنبّه فقد وافتكم الأشهر الحرم

تيقّظ لكي تزداد في الزاد واغتنم

فقم في لياليها وصم من نهارها

لشكر إله تمّ في لطفه وعمّ

ولا تهجعن في الليل إلا أقله

تهجدوكم صب من الليل لم ينم

ورتل كتاب الحق وأقرأه ماكثاً

بأحسن صوت نوره يشرق الظلم

فلم تحظ بل لم يحظ قط بمثله

وأخطأ من غير الذي قلته زعم

وسلم على أصل القرآن وفصله

بقية آل الله كن عبده السلم

فمن دان للرحمن في غير حبهم

فقد حبهم فقد ضلّ في إنكاره أعظم النعم

فحبهم حبّ الإله أستعذ به

هم العروة الوثقى فبالعروة اعتصم

ولا تك باللاهي عن القول واعتبر

معانيه كي ترقى إلى أرفع القمم

عليك بذكر الله في كل حالة

ولاتن فيه لا تقل كيف ذاوكم

فهذا حمى الرحمن فادخل مراعيأ

لحرماته فيها وعظمه والتزم

فمن يعتصم بالله يهد صراطه

فإن قلت ربّي الله يا صاح فاستقم

قال عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

وقال: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾^(٢) وقال جلّ جلاله العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠١.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

انتهبوا إخواني الأعزّة - وفقكم الله تعالى لطاعته - فقد دخلنا في حمى الأشهر الحُرَم، فما أعظم نعم الباري علينا وأتمّ، فالواجب علينا - قبل كلّ شيء - التوبة بشروطها اللازمة وصلواتها المعلومة، ثم الاحتماء من الكبائر والصغائر بقدر القوّة.

فليلة الجمعة - أو يوم الأحد - تصلون صلاة التوبة، ليلة الجمعة أو نهارها، ثم تعيدونها يوم الأحد في اليوم الثاني من الشهر.

ثم تلتزمون المراقبة الصغرى والكبرى^(١) والمحاسبة والمعاينة بما هو أخرى، فإنّ فيها تذكرة لمن أراد أن يتذكّر أو يخشى، ثم أقبلوا بقلوبكم، وداووا أمراض ذنوبكم، وهونوا بالاستغفار خطوب عيوبكم.

وإياكم وهتك الحرمات، فإنّ من هتك - وإن لم يهتك الكريم عليه - فهو مهتوك. وأنّى يرجى النجاة لقلب ارتبكت فيه الشلوك، حتى يسلك سبيل المتقين ويشرب من الماء المعين مع المحسنين، والله المستعان على نفسي وأنفسكم وهو خير معين.

١- عليكم بالفرائض في أحسن - أفضل - أوقاتها، وهي مع نوافلها الإحدى والخمسين، فإن لم تتمكنوا فبأربع وأربعين، وإن منعتمكم شواغل الدنيا فلا أقلّ من صلاة الأوابين^(٢).

٢- أمّا صلاة الليل، فلا محيص عنها عند المؤمنين والعجب ممّن يروم مرتبة وهو لا يقوم الليال وما سمعنا أحداً نال مرتبة منه إلّا بقيامها.

(١) قال السيّد محمد حسن القاضي: «... المراقبة الصغرى هي محاسبة الإنسان نفسه على ما يصدر منه من ذنوب وأخطاء حتى ترك المستحبات وارتكاب المكروهات وقيل: حتى المباحات... أمّا المراقبة الكبرى فهي دوام الذكر والتوجّه وعدم الغفلة قدر الإمكان...».

(٢) صلاة الأوابين: هي صلاة أهل الإنابة والتوبة ثمان ركعات أثناء الزّوال.

٣- وعليكم بقراءة القرآن الكريم في الليل بالصوت الحسن الحزين، فهو شراب المؤمنين .

٤- وعليكم بالتزام الأوراد المعتادة التي هي بيد كل واحد منكم والسجدة المعهودة^(١) من خمسمائة إلى ألف .

٥- وزيارة المشهد الأعظم - لمن كان مجاوراً - كل يوم، وإتيان المساجد المعظمة ما أمكن وكذا سائر المساجد، فإن المؤمن في المسجد كالسمكة في الماء .

٦- ولا تتركوا بعد الصلوات المفروضات تسبيحة الصديقة عليها السلام، فإنّها من الذكر الكبير ولا أقلّ في كلّ مجلس دورة .

٧- ومن اللازم المهم الدعاء لفرج الحجة عليه السلام في قنوت الوتر، بل في كل يوم وفي جميع الدعوات .

٨- وقراءة الجامعة في كل يوم جمعة، أعني الجامعة المشروحة المعروفة .

٩- ولا تكون التلاوة أقلّ من جزء .

١٠- وأكثروا من زيارة الإخوان الأبرار، فإنّهم الإخوان في الطريق والرفيق في المضيق .

١١- وزيارة القبور في النهار غباً، ولا تزوروا ليلاً .

ما لنا وللدنيا قد غرّتنا وشغلّتنا واستهوتنا وليست لنا، فطوبى لرجال أبدانهم في الناسوت وقلوبهم في اللاهوت، أولئك الأقلّون عدداً والأكثرّون عدداً .

(١) السجدة المعهودة: هي التسيحة اليونسيّة والوارة في الآية الشريفة «وذا النون... كنت من الظالمين» وهذا الجزء الأخير من الآية هي السجدة المعروفة لديهم .

أقول ما تسمعون وأستغفر الله .

سلخ ج ٢٠ / ١٣٥٧ هـ ق^(١) .

رسالة أخرى من السيّد القاضي قدّس سرّه

هذه رسالة كان قد بعث بها إلى السيّد محمد حسن الإلهي الطباطبائيّ (وهو الأخ الأصغر للعلامة الطباطبائيّ) هذه الرسالة وإن كانت فارسيّة نقلها بنصّها ولغتها الأصليّة ثم نأتي بترجمته وتعريبه .

عزيز قلبي ! وصلتني رسالتكم المؤرخة في السابع من شوال ، فتحت أبواب الجنان الثمانية وقد حملت في طياتها بشرى وصولكم إلى أحوال شريفة ولقد أحسنتم بي الظن كثيراً وإنّي لخائف من جسارة ترك جواب رسالتكم ولا بدّ مهما كلّف الأمر أن أجيبكم على نحو الاختصار ولو بكلمتين : أولاً أنكم تعلمون - وإلّا فاعلموا - أنّ هذا الموضوع يلقي بنحو الإشارة في الحضور لاحتمال وصوله إلى غير أهله وقد أجبتُ على جميع أسئلتكم ضمن الأبيات العربية المرفقة بهذه الرسالة وفي الجملة أرى لزماً عليّ أن أجيبكم] .

ذكر بعضهم قال : كنت أتعبد في مكان خالٍ ، إذ دخل عليّ أحد ، فذعرت ، يعني : على غير معاد . فقال لي : لا تخف ! فإنّ من أنس بالله لا يخاف . فقلتُ : يا سيّدي ! بم يصير الأبدال أبداً ؟ فقال : بالست الذي ذكره ، ومنها التوكّل .

نعم الذي حدث واتفق أنكم أسرعتم إلى الالتزام بتلك الكلمة الجليّة ومن الأفضل أن ترجعوا إلى الأذكار المركّبة . (ستقال على قصاصة من الورق مرفقة بهذه الرسالة) . وبعد الحصول على شيء من

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام» ١ / ١٨٥ - ١٨٨ .

الاستعداد والتهيؤ، فإنَّ الترقّي يكون بنحو آخر أشرحه لكم. لا ترجع إلى هذه الكلمة الجليّة إلى أن يحصل الاستعداد الكامل. ولا يمكن اجتياز المراحل التي وضعها العارفون أو التخلّف عنها ولا تجعل للحديث (حديث النفس) إلى نفسك طريقاً واجعل الفرق شعاراً لك ولا بأس بإعطاء الآخرين الأوراد والأذكار بعد تشخيص المحلّ القابل بذلك وما لم يحصل الطلب الصادق من الطالب فلا تعط له ورداً. ويحرم إذاعة الأسرار. ولا حاجة إلى إجازة أخرى. وأنا لا أستخير بالقرآن. وجميع الطرق منحصرة بالتوسّل بالأئمّة الأطهار والتوجّه الكامل نحو المبدأ... وإن كان قد جاء مائة فإنّ تسعين منها عندنا. لا علاقة لنا بالصوفية وطرقهم. وطريقتنا هي طريقة العلماء والفقهاء، مع الصدق والصفاء. نعم، المصاحب لازم أيضاً، إذا لم يجد... ويعلم البرنامج الكلّي بالمراجعات الكثيرة وكيف يجوز إعطاء البرنامج دفعة واحدة، والآن أطوي الرسالة لأنج شخصاً غير محرم [أي بعيد عن مسلكنا] قد جاء لزيارتي، انظر إلى حالي كيف هو؟! وأطوي الورقة بنحو لا يراها، اطلب العفو منك كثيراً. وليس لدي ما أقوله أكثر مما قلتُ، وقد كتبت لك شيئاً آخر على قصاصة من الورق].

ثم ختم (السيد القاضي (قدّس سرّه)) الرسالة بهذين البيتين من الشعر العربي:

فديتك لو عرضت عليك شوقي

يملّ السمع من طول الكلام

فإنّي بعد بُعد كما كشمس

لقد كسفت وصارت في ظلام

ومع هذه الرسالة أبيات من الشعر العربي يقول فيها:

وقد كان قلبي قبل ذا عنك لا هياً

ولكنه شوقته فتشوقاً

فلا توكلن لا تعجلن وتوكلن

ورفقاً لعلّ الله يجعل مرفقاً

فلا تربح الأزواد قط بجمعها

وقد ربح الأعواض من كان أنفقاً

ولا تعجلن فالأمر قسم مقدّر

سيأتيك ما ترضى وتأخذ في الرقى

توكل على الربّ الكريم ألا ترى

كفايته من قد توكل واتقى

إليك كتاب الحقّ فأقرأه ما كثأ

لترقى به حتى تلذذ باللقا^(١)

رسالة جوابيّة أخرى إلى السيّد محمد حسن الإلهي الطباطبائي:

بسم الله الرحمن الرحيم:

الحمد لله الملك العلّام والصلاة والسلام على سيد الرسل وآله

الكرام الفخام.

وبعد، جُعلت فداك، در رقيمه فخيمه قلمي شده بودكه: اگر مطالب علمي و عرفاني باشد به جنابعالی عريضه نگار شود، والاّ منتظر جواب نیستید. این فرمایش از صفای ذات ملکوتي الصفات آن جناب است. ولی واضح است که مطالب عالیّه در طی مراتب جاریه به نحو اشاره به اهلش معلوم است [ترجمتها: جُعلت فداك، في رسالتكم المفخمة

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام» ١ / ٢١٣ - ٢١٤.

ذكرتم: أنه لو كانت لدي مسائل علمية أو عرفانية أجيب على رسالتكم وإلا فإنكم غير منتظرين الجواب. وهذا الكلام صادر من صفاء ذاتكم الملكوتي الصفات، غير أنه من الواضح أن المسائل العلمية والعرفانية العالية تأتي خلال وضمن التحدّث عن الآخرين والمسائل والأمر الجارية والأحاديث المتداولة. مثل فارسي منظوم: [

وہ چہ خوش باشد کہ سر دلبران

گفته آید در حدیث دیگران

[ترجمتها: وما أجمل أن يأتي سر الحبيب في أثناء حديث الآخرين].

(قال السيّد محمد حسن نجل السيّد القاضي: ثم يستطرد - كعادته - في كتابة أبيات من الشعر العربي، بنظمها بديهة، عثرنا على أربع أبيات منها):

فانظر إلى الذكر الحكيم وسرّه

ذكرو عن فهم الجهول مكتم

قصص أخبار وذكر جهنّم

أو جنّة ونعيمها لا يُعدم

حكم وأحكام وذكرى مؤمن

أو كافر ومنافق لا يسلم

ما فيه من شيء سوى توحيله

من لم يكن من أهله لا يعلم

(ثم يقول المرحوم السيّد القاضي): خود را به شعر مقید نمودن زشت است. [ترجمتها: ومن القبيح أن تقيّد نفسك بالشعر].

عزیز دلم! الطرق إلى الله - جلَّ اسمُهُ - بعدد أنفُس الخلائق، أو أنفاسها. عرض می شود: کسانی را که به جهت ضعف وعدم استعداد قوّه خیالیّه که مسکنش دِماغ است، کشف حُجب به (آله) خیالیّه تعذّر یا تعسّر دارد. مناسب - یا متعیّن است - که پس از فراغ از مزاولات أعمال بدنیّه، من الصلاة والصوم والحج والخمس وأشباهها، به عوالم قلبیّه اختیاریّه، مثل ترك اراده به قدر طاقت ودوام حضور وترك همّ وغم وسرور واشباه آنها بپردازد و کم کم در خود فرا گرفته تا ملکه شود، إن شاء الله تعالى. و لازم است - مع ذلك - حال که رفیق و همسفر نیست، کتاب یا کتابها مثل آن کتاب که در نجف نداشتید داشته باشید، که جواهر مکّله به یوایت کتاب اعظم است.

ای ضیاء الحقّ حسام الدین زاد

او ستادان جهان را اوستاد

والسلام علیکم ورحمة الله.

[ترجمتها: عزیز قلبی! الطرق إلى الله - جلَّ اسمُهُ - بعدد أنفُس الخلائق أو أنفاسها. وأعرض بخدمتکم أنّ الذین يتعذّر - أو يتعسّر - علیهم کشف الحجب بواسطة القوة المخیلة، بسبب ضعف دماغهم، یناسب لمثل هؤلاء أو يتعیّن علیهم، بعد الفراغ من الأعمال والوظائف البدنیّة، من الصلاة والصوم والحج والخمس وأشباهها أن يتوجهوا إلى العوالم القلبیّة، من طریق أعمالها الاختیاریّة، مثل: ترك الإرادة بقدر الطاقة ودوام الحضور وترك همّ والغمّ والسرور، وأمثال ذلك من الأمیال النفسیّة، یزاول هذه الأعمال ویستمر علیها وبالتدریج یعتاد علیها وتصیر ملکات، أو شبه ملکات، إن شاء الله تعالى. ویلزم مع ذلك کلّه فی مثل هذه الحالة التي یفقد فیها الإنسان الصدیق الرفیق فی الطريق، أن

تكون لديه أمثال تلکم الكتب التي لم تكن معكم في النجف الأشرف .
(ثم يذكر بيت شعر لجلال الدين الرومي ، يثنى فيه الرومي على تلميذه
وصاحبه الخاص حسام الدين . يقول فيه):

يا ضياء الحق حسام الدين حرأبي ، وهو هو أستاذ أساتذة العالم .
والسلام عليكم ورحمة الله^(١) .

رسالة أخرى

وهذه رسالة أخرى تفضل بها علينا أحد الأعلام وإن لم يرنا المتن
الكامل ، إلا أن في الموجود لدينا منها لمحات عبقرية عرفانية فذة وترينا
جانباً آخر من جوانب شخصية المترجم له - قدس سرّه - .

[بسم الله الرحمن الرحيم]

إلى حضرة الولي الحميم والأخ الكريم ، الشيخ إبراهيم ، رزقه الله
الرشاد والتسليم . أمّا بعد حمد الله الملك العلّام والصلاة والسلام على
سيدّ رسله وآله الكرام ، سادة الأنام .

بلغ الكتاب وبشر الأوصحاب

عمري وإن شفاءنا لكتاب

فكتابنا في طيه لمراتع

ومرابع لأولى النُّهى أخضاب

عميت عيون لا تراها إنهم

صُم وبُكم ما لهم ألباب

وهُم ، هُم السفهاء وما علموا به

في جهل جهلاً أو تدق رقاب

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام» ١ / ٢٢١ - ٢٢٤ .

والطالبون من الكتاب ربوعه

في خصب عيش ماله إجداب

حلوا المذاق ولا تمرّ بمرة

إلا حلّت وأولئك الأنجاب

ولننظر الأسماء وأسمى بها

بين العلوم لدي منه حساب

نرقى بها فوق السماوات العلى

برقي علم ماله أسباب

فاسمي مع اسمك واحد فاعرف به

إن كان فيك من الظهور شراب

ولباسمي العالي السمي لعبرة

فيها اعتبر هب إنني مغتاب

فاصفح هديت عن العذول تكرماً

ما عندنا للعاذلين جواب

إلا السلام ولم نؤخر نظرة

لغد فما للعاشقين حساب

أفهمت أم أزد الكلام صراحة

لم يجد نصح لا يفيد سباب

علم أسماء حسنى بعد از علوم توحيد از اشرف علوم است ونيز وارد

است كه «الأسماء تنزل من السماء». فكرى بايد نمود كه موافق شد با

اسم الله . . . والسلام عليكم ورحمة الله .

برنامج العمل هو القرآن الكريم

يقول المرحوم السيّد القاضي في إحدى رسائله: وكلمة أخرى كنتم قد طلبتم في وقت حركتكم وفي رسالتكم الشريفة برنامجاً للعمل وليس لديّ لأمثالكم برامج عمل وإذا وجد لكم برنامج عمل فأنا لا أعلم. ومرادي ممّا كنت قد عرضته لكم سابقاً هو تحصيل العلم واليقين إجمالاً وقد أثمر والحمد لله تعالى والآن برنامج العمل هو القرآن الكريم، فيه دواء كل داء وشفاء كلّ علة ودواء كلّ غلّة علماً وعملاً، والآن فأجعل قرّة عيون المخلصين أمام عينيك دائماً واجعل سيرك مع هذا الهادي للطريق المقيم والصراط المستقيم ومن السنن الشريفة لذلك هو قراءته بصوت حسن وآداب أخرى وخصوصاً في بطون الليالي].

رسالة إلى أحد أصحابه في السلوك^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله جلّ شأنه والصلاة والسلام على رسوله وآله.

بعد حمد الله جلّ شأنه والصلاة والسلام على رسوله وآله. حضرة السيّد، الغفلة هي منشأ جميع هذا الفساد النفسي والذي من جملة الوسواس وعدم الطمأنينة. وإنّ أقلّ مراتب الغفلة هو الغفلة عن الأوامر الإلهية وهناك مراتب أخرى لا تصلون إليها إن شاء الله تعالى. وسبب جميع الغفلات، هو الغفلة عن الموت وتخيل البقاء في الدنيا. فإذا أردت الأمان من كل خوف ووساوس ففكر دائماً في الموت والاستعداد للقاء الله تعالى. وهذا معدن نفيس ومفتاح سعادة الدنيا والآخرة؛ فإذا ن عليك

(١) هذه رسالة إلى أحد الصديقين الحميمين: فضيلة الشيخ موسى الدبستاني أو الحاج

بالتفكير بالأمر التي تمنعك وتشغلك عن ذلك إن كنت عاقلاً].

ومن أجل هذا المعنى أكتب لك عدّة أشياء أخرى لعلّك تستعين بها .
أولاً: [بعد] تصحيح التقليد أو الاجتهاد عليك برعاية الكاملة للفرائض
الخمسة وسائر الفرائض في أحسن أوقاتها .

وأسعى ليزداد خضوعك وخشوعك يوماً بعد يوم . وواظب على
الإتيان بتسبيحه الصديقة الطاهرة - صلوات الله عليها - بعد كل صلاة
وعليك بالمواظبة على قراءة آية الكرسي بعد كلّ صلاة أيضاً . وعليك
بالإتيان بسجدة الشكر وقراءة سورة «يس» بعد صلاة الصبح وقراءة سورة
الواقعة في الليل . وعليك بالمواظبة على إتيان النوافل الليلية . وعليك
بقراءة المسبّحات^(١) في كلّ ليلة قبل النوم . وعليك بقراءة المعوذات في
الشفع والوتر والاستغفار سبعين مرة فيها ، وكذلك الاستغفار سبعين مرة
بعد صلاة العصر . وعليك بقراءة هذا الذكر بعد صلاتي الصبح والمغرب
أو في الصباح والعشاء عشر مرّات :

« لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الحمد وله الملك وهو على كلّ
شيء قدير ، أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك ربّي أن يحضروني ،
إنّ الله هو السميع العليم » .

وعليك بالاستمرار على هذه الأعمال لعلّك تجد حالة روحية فتكون
طالباً للاستقامة إن شاء الله تعالى] .

(١) قال العلامة الطباطبائي رحمه الله : « . . . المُسَبِّحات التي تبدأ بـ «يُسَبِّحُ أو سَبَّحَ» فهي خمس :
الحديد ، الحشر ، الصف ، الجمعة والتغابن . أمّا سورة الأعلى التي تبدأ بفعل سَبَّحَ
بصيغة الأمر ، فهي لا تعدّ من المُسَبِّحات وإن كانت قد وردت في بعض الروايات
ولكنّ الروايات المعتبرة قد حدّدت عدد السور المسبّحات بخمس . (الشمس
الساطعة ، ص ١٢٧) .

حصول التجرد للسيد هاشم الحدّاد بمتابعة أمر الأستاذ المرحوم القاضي بالصبر والتحمل

قال سماحة السيّد الحدّاد: لقد حصل لي التجرد للمرة الأولى في كربلاء، وتفصيل ذلك: أنّه كان يعيش مضطراً لِعُسْر المعيشة مع أبوي زوجته، فكان أولئك يعيشون في جانب من البيت وهؤلاء في جانب، في غرفة أعطاهما إيّاه والد زوجته مجاناً، ودام ذلك اثنتي عشرة سنة. وكان والد زوجته - حسين، أبو عمشة - يحبه كثيراً أمّا والدتها فكانت على العكس من ذلك، ولم تكن لتفتقد مشاعر العطف والمحبة نحوه فقط، بل كانت لا تتورّع عن إبداء أنواع الأذى في القول والفعل. وكانت امرأة قوية البنية بذيئة اللسان ومن عشيرة الجنابات العربية، امرأة شجاعة وجريئة بشكل لم يكن لأيّ رجلٍ الحقّ في العبور ليلاً قرب منزلها خوفاً منها، فكان لها القدم الراسخ في حفظ عائلتها وبناتها إلى حدّ كبير، وإذا ما صادف أحياناً أن يعبر شخص فقد كانت تذهب إليه بمفردها وتحاسبه على ذلك. وكان السيّد يقول: لم يكن يفصل بين غرفتهم وغرفتنا في هذا الجانب سوى أكياس الرزّ الذي له رائحة العنبر وظروف السمن المعدنيّة المكسّسة على بعضها، لكنهم لم يكونوا ليعطونا منها شيئاً، بل كانت أمّ زوجتي - واسمها نجية - تتهمّد أن ترانا في شدّة وعسر، لكأنّها كانت تسعد بذلك وتسرّ وكنت وزوجتي نفتقد الفراش والغلاء، وكنا نسحب نصف الحصير من أسفلنا أحياناً فنلقيه علينا من شدّة البرد.

وبالرغم من أنّي كنت أذهب للعمل جورة منتظمة، لكنّ أكثر المراجعين كانوا من الفقراء الذين يعرفونني، والذين كانوا يأخذون مني نسيئة، وكان بعضهم لا يدفع الثمن. كما كان معاوني يأخذ ما يحتاج من

مصارف، فلم يَبْقَ لي شيء غالباً إلا مائة أو خمسون فلساً كانت بالكاد تغطي نفقات شراء الخبر والنفحة وفتيلة المباح وأمثالها، وكانت الأشهر تتصرّم فأعجز خلالها عن شراء قليل من اللحم لأحملة لعائلي. وكان سبب نفور هذه المرأة منّي مسألة الفقر التي كانت في نظرها أمراً قبيحاً ومع هذا الوضع الذي كانت تلمسه والذي كان يوجب عليها أن تمدّ يد المساعدة لنا، إذ كانت متمكّنة وثرية، لكنّها كانت على العكس تسعى إلى أن يتلف لدينا شيء ليزداد ضيقنا ومحتتنا.

ومن جهة أخرى فلم تكن شدّة الحالات الروحية والاستفادة من محضر سماحة المرحوم القاضي لتسمع لي بجمع المال وتكديسه، أو ردّ الفقير والمحتاج أو رفض إقراض الآخرين وكانت حالتي بهذه الكيفيّة التي لم يكن يسعني أن أمتلك غيرها.

وكانت زوجتي تتحمّل وتصبر، لكنّ صبرها وتحملها كانا محدودين. وهكذا فقد ذكرتُ للمرحوم القاضي بأنّ أذى حماتي لي بالقول والفعل قد بلغ حدّه الأقصى، ولقد عيل صبري في الحقيقة فلم أعُد أمتلك الصبر والحلم والتحمّل على أذاها، وطلبتُ منه الإذن في طلاق زوجتي.

فقال المرحوم القاضي: بغضّ النظر عن هذه الأمور، فهل تحبّ زوجتك؟ أجبتُ: نعم! قال: أفتحبّك زوجتك؟ قلتُ: نعم!

قال: لا إذن لك في الطلاق أبداً! فأذهب واصبر، فإنّ تربيتك على يد زوجتك، وبهذا الشكل الذي بيّنته، فإن الله سبحانه قد قرّر أن يكون تأديبك على يد زوجتك؛ فعليك بالتحمّل والمدارة والحلم!

ولم أكن لأتخطّى تعليمات المرحوم القاضي أو أتجاوزها أبداً، وكنت أتحمّل ما تضيقه أمّ زوجتي هذه فوق مصائبنا. حتى كانت ليلة من

ليالي الصيف، عدت فيها إلى المنزل من الخارج بعد أن مرّ جزء من الليل، تعباً مرهقاً وجائعاً وعطشاًناً أريد الذهاب إلى الغرفة، فرأيت أم زوجتي جالسة قرب الحوض في ساحة المنزل وقد كشفت عن ساقيها من شدة الحر وشرعت بصبّ الماء عليهما من الحنفية الموضوعة فوق الحوض، وحين علمت أنني قد دخلت المنزل، شرعت في كيل كلمات التجريح والسباب والشتائم التي تخاطبني بها، ولم أدخل إلى الغرفة، بل اتّجهت نحو السلم فصعدت إلى السطح لأستلقي هناك، فرأيت أنّها رفعت عقيرتها وزادت نبرات صراخها بحيث صار الجيران يسمعونَه فضلاً عني، وهكذا فقد كالت لي سيل الشتائم والسباب، واستمرت تُعدّد وتعدّد حتى عيل صبري، فهبطت الدرج بدون أن أنتهرها أو أردّ عليها بكلمة واحدة، وخرجتُ من باب البيت فهمتُ على وجهي بلا هدف ورُحْتُ أسير في الشوارع بلا قصد أو انتباه، بل هكذا أسير في الشوارع دون أن أعرف إلى أين أذهب؛ كنت أسير فقط.

وفجأة رأيت في تلك الحال أنني صرت اثنين: أحدهما السيد هاشم الذي اعتدت عليه أمّ زوجته وسبّته وشتمته، والآخر هو أنا مجرد ومحيط ومتسام لم ينلني سبابها وشتائمها، فلم تكن أساساً تسبّ سيد هاشم هذا، ولم تكن لتسبّني أو تشتمني، بل كان سيد هاشم ذاك هو الجدير بكلّ أنواع القبيح من القول. أمّا سيد هاشم هذا الذي هو أنا، فلا يستحقّ أن يسبّ، بل إنّها مهما سبّت وشتمت فإنّ ذلك لن يصل إليّ.

فانكشفت لي في تلك الحال أنّ تلك الحالة الرائعة التي حصلت لي والتي تبعث على السرور والبهجة إنّما حصلت إثر تحمّل تلك الشتائم والألفاظ القبيحة التي كالتها لي أم زوجتي، وأنّ إطاعة أمر الأستاذ المرحوم القاضي قد فتحت لي هذا الباب، فلو لم أطعمه ولم أتحمّل أذى

حماتي، لبقيت إلى الأبد ذلك السيّد هاشم المحزون المغموم الضعيف
المشتّت الفكر والمحدود.

ولله الحمد فأنا الآن سيد هاشم هذا، حيث أترّبع في مكان رفيع
ومقام كريم وعزيز، لا ينالني غبار جميع الهموم والأحزان والغموم
الدينيّة بذرة منه، ولا يتمكّن من أن ينالني بشيء من ذلك وهكذا فقد
عدت فوراً من هناك إلى البيت، فانكبت على يدي أمّ زوجتي ورجليها
أقبلهما وأقول: لا تتخيّلني أنني انزعجت من كلامك ذلك، فقولني فيّ بعد
الآن ما شئت فإنه مفيد لي! ^(١).

مصائب العارفين

يقول المرحوم آية الله السيّد عبد الكريم الكشميري: كان السيّد
القاضي مشهوراً بالعرفان في النجف ولذا كان تلاميذه يحذرون من التردّد
على بيت أستاذهم خوفاً من ألسنة المعاندين، فكانوا لا يدخلون داره إلى
أن يفرغ الزقاق من المارة. كنت يوماً واقفاً مع السيّد القاضي في صحن
مرقد أمير المؤمنين عليه السلام، فرآني أحد فضلاء الحوزة وأخذ يهزّ رأسه أسفاً
على وقوفي مع السيّد القاضي.

كان آية الله الميرزا علي محمّد البروجردي يقرّر درس السيّد القاضي
فمنعه أحد علماء النجف المعروفين من حضور درس السيّد القاضي وقال
له: لا تذهب إلى هذه المجالس فتتخلّف عن الحصول على درجة
الاجتهاد في علوم الحوزة في الفقه والأصول. فكان يأتي سرّاً ويحضر
درس أستاذه.

يقول السيّد محمد حسن نجل السيّد علي آقا القاضي: «... إنّ العلماء في النجف الأشرف كانوا يتبعون ما أمكن عن الخوض في البحوث والمسائل العرفانيّة وينكرون الكتب المنسوبة إلى هذه الفرقة، فإنّ كتاب «مولوى» من الكتب الممنوعة ونادراً ما كان يوجد ضمن كتب الطلبة وكان البعض يغالي بأن كان يأمر بإخراجه من ضمن الكتب الفقهيّة؛ لأنّه دنس (كذا) ويجب إبعاده عن الكتب التي تحوي كلام المعصومين عليه السلام».

ويذكر أنّ العلامة الطباطبائي - وهو من أخصّ تلاميذه - كان لا يقرؤه ولا تحويه مكتبته ولكنّه هو - قدّس سرّه - كان يشغل الفراغ بقراءته وفي الأيام الأخيرة حين ضعفت عينيه كانت تصعب عليه القراءة حتّى مع المنظار، كان يستمع لتلميذه الأخير آية الله الحاج الشيخ عباس القوجاني وهو يقرأ أو يعقب هو (قدّس سرّه) قراءته ببعض الملاحظات والتوضيحات ومع الشيخ قلم وهو سريع الكتابة ولا تفوته النكته^(١).

وكان له قدّس سرّه من المعاندين والمخالفين كثرة في النجف الأشرف؛ فإذا كان من رأيه مجاملة ومسايرة المجتمع الذي يعيش فيه فإنّه من الحزم أن لا يصرّح بشيء من أمثال هذه الآراء التي بظواهرها تنافي ما عليه جماعة العلماء والفقهاء. ولقد ناقشه غير واحد من أخصائه - وأنا بالذات - فكان الجواب الأخير: أتريد أن أذكر في التاريخ بأنّ القاضي خالف فقهاء زمانه؟! ولا أريد أن أذكر هكذا أبداً^(٢).

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام» ١ / ٣٣١.

(٢) «صفحات من تاريخ الأعلام» ١ / ٣٣٠.

لم أطلعكم أنتم عليها!

يقول المرحوم آية الله السيّد عبد الكريم الكشميري: جاء عدة أشخاص للاستفادة من محضر السيّد القاضي ولازموه مدّة من الزمن ثم تركوا درسه، فقال العلامة الطباطبائي للسيد القاضي: سيّدنا! كأن هؤلاء أرادوا منك شيئاً فلم تعطهم إيّاه فتركوك؟ فقال السيّد القاضي: إنّ لدي أشياء أخرى لم أطلعكم أنتم عليها أيضاً، فكيف أخبر هؤلاء المبتدئين؟!

أكثرهم احتراقاً!

يقول السيّد عبد الكريم الكشميري رحمته الله: وقد ربّى السيّد القاضي كثيراً من التلاميذ في دورات متعدّدة، وقد قال عنهم في عملية تقييم لهم: كان السيّد أحمد الكشميري أكثرهم احتراقاً! وقد ذهب السيّد أحمد بعد ذلك إلى كشمير ورأيته يوماً وقد احمرّت عيناه وورمتا وعندما سألت عن علّة ذلك علمت أنّه بقي الليلة الماضية مستيقظاً في غرفته إلى الصباح يردّد الذكر التوحيدي «يا الله يا هو» إثنا عشر ألف مرّة!

سجّدات طويلة

يقول المرحوم آية الله السيّد عبد الكريم الكشميري: عندما كنت في النجف الأشرف كنتُ أتشرّف بزيارة السيّد القاضي في منزلة بين الفينة والأخرى، فأجده ساجداً أحياناً فأدخل الغرفة وأنتظر طويلاً لعلّه يرفع رأسه من السجود، ولكن بلا جدوى، فأخرج وهو لا زال في سجوده!

لا تعدّ هذه النقود!

يقول آية الله السيّد عباس الحسيني الكاشاني: عندما كنت مقيماً في النجف كان لي صديق غاية الفقر، فذهب يوماً إلى السيّد القاضي وقال له: إنّ الله تعالى قد أولاني الجميل في جميع أموري إلّا أنّي في فقر وفاقة

شديدة وأعاني بسبب ذلك من مشاكل جمّة وأرجو منك أن تعينني على حلّ هذه المشكلة . فمَدَّ السيّد القاضي يده في جيبه وأخرج صمّاً من النقود وناولها إيّاها قائلاً له : ضع هذه النقود في جيبك وانتفع منها من غير أن تعدّها . يقول صديقنا : بقيت مدّة من الزمان كلّما احتجت شيئاً مددت يدي في جيبِي وأخرجت المبلغ الذي أحتاجه من غير أن أعرف مقدار النقود التي في جيبِي ، إلى أن وسوست لي نفسي وأقول : ما عسى أن تكون هذه النقود التي لا تنفد ، ومددتُ يدي إلى جيبِي وأخرجتها وعددتها فإذا هي لا تتجاوز عدّة فلوس ، فأرجعتها إلى جيبِي ، ولكن بعد مدّة يسيرة ذهبت بركة هذه النقود ووقعت مرّة أخرى في الفقر والفاقة . فذهبت ثانية إلى السيّد القاضي وقبل أن أتفوّه بكلمة قال لي : ها؟ ماذا عملت؟ عددت النقود؟ وأعطاني صمّاً من النقود وقال لي : ضعها في جيبك ولا تعدّها كما فعلت في المرة الأولى .

يقول السيّد الكاشانيّ : وبقي صاحبي ينتفع من هذه النقود ما دام على قيد الحياة من غير أن ينقص منها شيء .

دعاء مؤثّر

يقول آية الله السيّد عباس الكاشانيّ : كنتُ يوماً جالساً عند السيّد القاضي فجاءه رجل مسرعاً وكان يبدو عليه الحزن والاضطراب وقال للسيّد : إنّ زوجتي في حال الاحتضار ، وإذا ماتت فلا أحد لي سواها ، فأرجو منك الدّعاء لترجع إليها عافيتها وتنجو من الموت ، فقال له السيّد القاضي : لماذا تأتي إلى هنا وأنت جُنُب ، اذهب واغتسل ثم عُدَّ إليّ . فنهض الرجل العربي مسرعاً وقد لَفَّه العجب وأخذته الدهشة وذهب إلى منزله واغتسل ثم عاد مرة أخرى ، وجلس في مقابل السيّد بأدب وخضوع -

فوضع السيّد سبابته على صدغ الرجل وشرع في القراءة والدعاء حتى أخذت دموعه تسيل على خديّه وبعد إتمام الدّعاء، أمره السيّد بالنهوض، فذهب الرجل إلى منزله وبعد عدة أيام رأيت هذا الرجل في صحن مرقد أمير المؤمنين (عليه السلام) وسألته عن نتيجة الدّعاء، فقال: عندما رجعت إلى منزلي رأيت زوجتي سالمة وفي صحّة جيدة وهي تزاوّل أعمالها المنزليّة كالمتعاد.

المجالس حسب طبقات السالكين

يقول آية الله السيّد عبد الكريم الأردبيلي: فقد نقل عن الشيخ محمد رضا آل ياسين أحد أعظم علماء النجف قوله: كان للسيّد القاضي مجالس متعددة بتعدّد طبقات السالكين على أساس الحال والمقام، ويمكن تمييزها بالعناوين التالية: مجلس عام، مجلس خاص، مجلس خاص الخاص ومجلس أهل الخاص. يقول: فذهبتُ يوماً إلى إحدى مجالسه الخاص للمستوى العادي من التلاميذ وعندما خرجت من منزله وضعت عباءتي على رأسي وغطّيت بها وجهي ومشيت وأنا لا أملك دموعي، فأخذت أبكي بلا إرادة منّي وكلّما نظرت إلى مكان أو شخص تشاءمت منه، فسلبت منّي طاقة البقاء في الدّنيا والحياة مع الناس بسبب الانقطاع المؤقت عن العوالم الدنيويّة. وكم أنا نادم لعدم استطاعتي الحضور بعدها في هذه المجالس النورانيّة.

روح السيّد القاضي لطيف

يقول المرحوم آية السيّد عبد الكريم الكشميري: لقد كان السيّد القاضي كلّهُ مكاشفة وقد صار في آخر عمره لطيفاً ورقيقاً جداً؛ فكان بمجرد أن يرى الماء يتذكّر مصيبة عطش الإمام الحسين (عليه السلام) ويشرع في البكاء.

أنموذج من نشر السيّد القاضي

وقد جاءت هذه الكلمة كختم لكتاب «الإرشاد» للشيخ المفيد، الذي قام بتحقيقه وإخراجه في ثوب جديد حسبما كان يتيسّر له في ذلك اليوم من نماذج الطبع والإخراج والتحقيق: يقول المفتاح إلى ربّه الغني علي بن الحسين الحسيني الحسيني: أمّا بعد حمد الله الذي خلق العباد وسلك بهم سبيل الرّشاد وأمكنهم من خير الرّاد إلى يوم المعاد، الذي جعل من رحمته إسعاف الراغبين وأتمّ النعمة في هداية المسترشدين، ورضي لنا ما هو عنده دين، والصلاة والسلام على الصفوة السليل، وأفضل من أرشد إلى خير سبيل، المبعوث بلغة إسماعيل، المصطفى من سلاسله الخليل، المبشّر به في التوراة والإنجيل، وعلى أوصيائه المرضيين، الأئمة المهتدين.

فهذا هو الوعد الذي سبق ذكره وطاب عرفه وفاح عطره، طال ما طمع إليه الأحداق وصور إليه الأعناق حتى وُقّق الله وسهل تصحيحه على قصر باعي وقلة متاعي، إذ كيف يسعني وأمثالي مخاطرته وأمثاله؟! وأنّه البحر الذي لا يساحل والنبط الذي لا يساجل، في بحار الأنوار مورده ومشرعه ومن عيون الأخبار مجراه ومنبعه، كم فيه من غريب لفظ أرخى عليه مرّ الدهور السدول ودقيق معنى في الفرق بين الأبواب والفصول، قد غير مرّ الدهور السدول نصابها وشيّب ريب المنون شبابها، فتذرّى - بعونه تعالى - بعد الاحتطاط، مصححة الأغلاط، مصوناً من التفريط والإفراط، فإنّه وإن نزل عن سائر الكتب المطبوعة في جودة خطه وصفاء طبعه، لكنّه أعلا من أكثرها في الصحة والاعتماد عليه، على أنّ النسخ المنطبعة (المطبوعة) من هذا الكتاب قاصرة عنه في جميع الأبواب، وصدق الدعوى يظهر لمن وافقها ووقف وتأمل دونها وأنصف.

ولقد استنسخ هذه النسخة ممّا يقرب من عشر نسخ عتيقات. منها:

نسخة تروى عن السيّد الأجل عميد الرؤساء أبي الفتح يحيى بن محمد بن نصر بن علي بن حسام العلوي، المتوفى في المائة السادسة من الهجرة - روح الله روحه - وهي عرية من التاريخ.

ومنها : نسخة كتبت في سنة ست وأربعين وتسعمائة بيد السيّد أحمد بن كمال الحسيني - رحمه الله تعالى - .

ومنها : نسخة كتبت في سنة خمس وثلاثين ومائة بعد الألف من الهجرة وهي نسخة بارعة صحيحة، قرأت على بعض العلماء - رضوان الله عليهم أجمعين - .

وساير النسخ أيضاً يقرب من هذا في السداد وحسن الاعتماد، قد قبل بعضها ببعض وأضيفت إليها باقي القرائن القريبة من النحو والصرف واللغة وما عساه يشكل من أسماء الرجال وشعب الأنساب، كل ذلك من الكتب المعتمدة، قد بينا قائله ونسبة قوله، إلا ما اشتهر بين العلماء ممّا لا يحتاج فيه إلى إيراد من قال، حتى تمّ هذه النسخة على أعلى مكانة وأتمّ صيانة والله وليّ التوفيق.

ومع ذلك لا يبعد أقصى بعد أن يكون فارط الأغلاط ممّا أكثر ممّا صحّ في هذا الاجتهاد، إذ المرء في غشاء من عيبه ولو علم معابه لما قرّر عليه ولا ينبغي للبيب أن ينكر ما جهله.

فالمرجو ممّن عثر فيه على غلط أو علم فيه بغلت، أن يصححه بعد دقة النظر والرجوع إلى مظان الصّحة ولا يذكر المصحّح بما يحطّ بالذاكر عن كبره، فإنّ العلماء حلماء ولقد أعذر من أقرّ بالتقصير.

وقد استنار هذه اللمعة من يوم الجمعة، الثامن عشر من ذي الحجة وفي مثله تمّت النعمة ونصب الولي والحجة، أواخر سنة ست وثلاثمائة

بعد الألف من الهجرة وهي موافقة لإحدى وأربعين سنة مضت للأنام،
بالسلامة والإسلام، مخفوضاً لهم جناح الذلّ بالإحسان، مخفوفاً عليهم
بدوائر الأمن والإيمان، أعني الدولة البهية والسلطنة العلية، المفتخرة
بالسلطان الأعظم والخاقان الأكرم، مالك رقاب الأمم، صاحب المعالي
واللهم، حامي حوزة الدين، ولي نعم المسلمين، أبو الفتح والظفر
ناصر الدين شاه قاجار لا زالت همّته بالدين معنية وحرمة أهل الحقّ بهيبته
محمية وأيام إقباله دائمة مرضية وذلك بالسنين الشمسية حتى تمرّ على
كمالهِ وظهر في بدر جماله في يوم السبت السابع عشر من شهر ربيع
الأوّل الولادة ومولد السعادة أوائل ثمان وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة
النّبوية الختمية المحمدية.

لما كان العلم بالنسب العليّة وشعب الأنساب العلوية، من أهم
المقاصد العلمية وبه يعرف بعض الأحكام الشرعيّة، علقنا عليه هذه
اللمعة البهية في نسب هذه الفرقة الحسينيّة، عليه وعليهم الثناء والتحيّة،
أقلّ الخليقة السيّد علي بن المولى الحاج الميرزا حسين بن الميرزا
أحمد . . . إلى آخر سلسلة النسب.

يقول السيد محمد حسن نجل السيّد علي القاضي: وجدت مكتوباً
بخطه الشريف ضمن مجموعته العلمية التي كان يجمع فيها نماذج من نثره
وشعره: قال علي بن الحسين الحسيني - عفى الله عن جرائمهما -: بعد
حمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسوله المختار وآله الأطياب.

فقد كنت والسن في حداثة والغصن طري، مولعاً بالشعر، حافظاً
لطرف منه، معجباً بطرائف ودقائق بما جاءت به أفكار الشعراء في بعض
مقالاتهم، من حكمة شريفة ومعانٍ لطيفة ومقاصد رقيقة أنيقة، على
بعدهم من الكتاب وفصل الخطاب وتعسف بعضهم عن طريق الصواب

وما ذلك إلا لتجردهم حالة الإنشاد عن العلائق، وإمعان النظر في استخراج المعنى من الحقائق.

على أن الكلام المنظوم فوق المنشور إذا كان حكمة، والحكمة للأديب، أنها فوق كل شيء ولو كان نثراً. والكلام الشعري غير المنظوم وقد يكون نثراً والمنظوم غير المنهي عنه وقد يكون حكمة. فلا تلازم بينهما لا لفظاً ولا حقيقة. فتحقق أن لا قدح في الشعر إذا كان حكمة ولا فضل للنثر إذا لم يكن حكمة.

فما أحسن كلاماً منظوماً يجمع طرفاً من الحكمة والعلم والهدى والعظة وسائر المآرب المباحة إذا لم تكن محظورة على لسان الشارع. فإنّ النفوس الإنسانية والأرواح العلوية لتعلقها بالأفلاك بداءة وحقيقة ونشأتهم على جميع العوالم هيئة كروية وحقيقة نشئهم فلكية. فتتأثر بالمنظوم ما لا تتأثر من الغير، لأنّ حقائق الأغنية من الغير مأخوذة من الهيئة الكروية الفلكية ولكون هذا الأثر ربما استعمله الجهال في غير الوجه المطلوب شرعاً، جاء النهي عن طائفة من الشعر ردعاً.

ولما لاحظت هذه المعاني وحداني الجدّ إلى الوصول، أذن لي الفهم في معلومه وأذنت الذوق في شعره ومنظومه.

ولئما اشتغل به أيام الفراغ والفترة وأحيان اشتغال القلب بغير الحظرة. على أن أوقاتني تضيع كما يضيع الجمد في الضحى، والدخان في السماء، فما أعذرني لو صرفت منها آونة محصورة في المقالة المذكورة، عسى أن يترحم عليّ بعض من يطلع عليه بعدي، حين الفقر والخلة، من أهل الوفاء والخلة. والله نعم الوكيل.

علي بن الحسين الطباطبائي ١١/٢٥ / ١٣٢٥ هـ^(١)

العمل برواية عنوان البصري من أوامر المرحوم القاضي

يقول السيّد محمد حسن نجل السيّد علي آقا القاضي: «... أنّه (السيّد القاضي قدّس سرّه) كان كثيراً ما يطلب منّا - ونحن صغار نترج على الكتابة - أن نكتب له وبخط واضح وجلي «حديث عنوان البصري» ويستبقي أصحّ النسخ عنده وكأنّه يدفعه لبعض من يراجع للحصول على برنامج للعمل بمقتضاه على الأخص أولئك الذين لا يتمكنون من الحضور في مجلسه بصورة دائميّة بأيّ سبب كان...»^(١).

يقول العلامة السيّد محمد حسين الطهراني: «لقد كان المرحوم الأستاذ الكبير، عارف القرن الذي لا نظير له، بل هو حسب تعبير أستاذنا سماحة الحاج السيّد هاشم: «لم يأت منذ صدر الإسلام حتى الآن في مثل شمول وجامعية المرحوم القاضي»، كان قد أصدر تعليماته لتلاميذه ومريديه في السير والسلوك إلى الله، أن يكتبوا رواية عنوان البصريّ ويعملوا بها من أجل تخطّي النفس الأمّارة والرغبات المادية والطبيعية والشهويّة والغضبيّة التي نشأ غالباً من الحقد والحرص والشهوة والغضب والإفراط في الملذّات.

أي إنّ العمل وفق مضمون هذه الرواية كان أمراً أساسياً ومهماً وكان يقول مضافاً إلى ذلك: ينبغي أن تحتفظوا بها في جيوبكم وتطالعونها مرة أو مرتين كلّ أسبوع. فهذه الرواية تحظى بالأهميّة الكبيرة وتحتوي مطالب شاملة وجامعة في بيان كيفيّة المعاشرة والخلوة وكيفيّة ومقدار تناول الغذاء وكيفيّة تحصيل العلم وكيفيّة الحلم ومقدار الصبر والاستقامة وتحمل الشدائد أمام أقوال الطاعنين؛ وأخيراً مقام العبوديّة والتسليم

(١) «صفحات من تاريخ الأعلام»، ١/١٩٧.

والرضا والوصول إلى أعلى ذروة العرفان وقمة التوحيد .

لذا ، فلم يكن المرحوم القاضي ليقبل تلميذاً لا يلتزم بمضمون هذه الرواية . وهذه الرواية منقولة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، وقد ذكرها المجلسي في كتاب «بحار الأنوار» .

ولما كانت تمثل برنامجاً عملياً شاملاً نُقِلَ عن ذلك الإمام الهمام ، لذا نوردها بألفاظها وعباراتها بلا تصرفٍ ليستفيد منها مُحِبُّو وعشَّاق السلوك إلى الله تعالى :

أقول : وجدت بخطّ شيخنا البهائيّ قدّس الله روحه ما هذا لفظه :

قال الشيخ شمس الدين محمد بن مكّي : نقلتُ من خطّ الشيخ أحمد الفراهاني رحمته الله ، عن عنوان ^(١) البصريّ - وكان شيخاً كبيراً قد أتى عليه ^(٢) أربع وتسعون سنة - قال : كنتُ أختلف إلى مالك بن أنس سنين ، فلما قدم جعفر الصادق عليه السلام المدينة اختلفتُ إليه ، وأحببتُ أن آخذ عنه كما أخذتُ عن مالك .

فقال لي يوماً : إنّي رجل مطلوب ومع ذلك لي أورد في كل ساعة من آناء الليل والنهار ، فلا تشغلني عن وردي ؛ وأخذ عن مالك واختلف إليه كما كنت تختلف إليه . فاعتممتُ من ذلك ، وخرجتُ من عنده وقلتُ في نفسي : لو تفرّستُ فيّ خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه والأخذ عنه .

(١) يقول في «أقرب الموارد» : عَنَوْنَ الكتابَ عَنَوْنَةً : كنتُ عُنَوَانَهُ ؛ ويُقال : عَنَوْنُهُ وَعَنَتُهُ وَعَنَتَهُ . والاسمُ : العُنْوَانُ ؛ عُنْوَانُ الكتابِ وعُنْوَانُهُ وعُنْيَانُهُ وسِمَتُهُ ودِيَابَجَتُهُ ؛ سُمِّيَ به لِأَنَّهُ يَعْزُّ لَهُ مِنْ نَاحِيَتِهِ . وَأَصْلُهُ عُنَّانٌ كَرُمَّانٍ . وَكُلُّ مَا اسْتَدَلَّتْ بِهِ شَيْءٌ يُظْهِرُكَ عَلَى غَيْرِهِ فَعُنْوَانٌ لَهُ ؛ يُقَالُ : «الظَّاهِرُ عُنْوَانُ الْبَاطِنِ» .

(٢) يقول في «أقرب الموارد» : أُنَا - ض - أَتِيًّا وَإِتِيَانًا وَإِتِيَانَةً ؛ وَمَاتَانَةً وَأُتِيًّا (وَيُكْسَرُ) عَلَى الشَّيْءِ ؛ أَنْفَدَهُ وَبَلَغَ آخِرَهُ وَمَرَّ بِهِ ؛ وَ - عَلَيْهِ الدَّهْرُ : أَهْلَكَهُ .

فدخلتُ مسجد الرسول ﷺ وسلّمت عليه ثم رجعت من الغد إلى الروضة^(١) وصلّيت فيها ركعتين وقلت: أسألك يا الله يا الله! أن تعطف عليّ قلب جعفر وترزقني من علمه ما أهتدي به إلى صراطك المستقيم! ورجعتُ إلى داري مغتماً ولم أختلف إلى مالك بن أنس لما أشرب قلبي من حبّ جعفر. فما خرجت من داري إلّا إلى الصلاة المكتوبة حتى عيل صبري.

فلما ضاق صدري تنعلتُ وترديتُ وقصدتُ جعفرأً وكان بعدما صلّيتُ العصر. فلما حضرتُ باب داره استأذنتُ عليه فخرج خادم له فقال: ما حاجتك؟ فقلت: السلام على الشّريف! فقال: هو قائم في مصلاه. فجلست بحذاء بابهِ، فما لبثت إلّا يسيراً. إذ خرج خادم فقال: ادخل على بركة الله. فدخلتُ وسلّمت عليه فردّ السلام وقال: اجلس غفر الله لك!

فجلستُ، فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه وقال: أبو من؟ قلت: أبو عبد الله!

قال: ثبت الله كُنيتك ووقّك يا أبا عبد الله! ما سألتك؟ فقلتُ في نفسي: لو لم يكن لي من زيارته والتسليم غير هذا الدعاء لكان كثيراً. ثم رفع رأسه ثم قال: ما سألتك؟!

(١) المقصود بالروضة: الموضع الواقع بين القبر المطهّر للرسول الأكرم ﷺ ومنبره. روى الكليني في «فروع الكافي»، ج ٢، ص ٥٥٣ و ٥٥٢، كتاب الحجّ، باب المنبر والروضة ومقام النّبي، طبعة دار الكتب الإسلامية، طهران، سنة ١٣٩١: أنّ رسول الله ﷺ قال: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنّة. وقد أورد هذه الرواية المحقّق الفيض الكاشاني في «المحجّة البيضاء»، ج ٢، ص ١٨٧، طبعة مكتبة الصدوق، من كتاب «أسرار الحجّ» بلفظ: ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنّة.

فقلتُ: سألتُ الله أن يعطف قلبك عليّ ويرزقني من علمك وأرجو أن الله تعالى أجابني في الشَّريف ما سألتُه.

فقال: يا أبا عبد الله! ليس العلم بالتعلُّم، إنّما هو نور يقع في قلب من يريد الله تبارك وتعالى أن يهديه؛ فإنّ العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية وأطلب العلم باستعماله، واستفهم الله يفهمك!

قلتُ: يا شريف! فقال: قل يا أبا عبد الله!

قلتُ: يا أبا عبد الله! ما حقيقة العبودية؟

قال: ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً، لأنّ العبيد لا يكون لهم ملك؛ يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به ولا يدبّر العبد لنفسه تدبيراً وجملة اشتغاله فيما أمره تعالى به ونهاه عنه.

فإذا لم ير العبد لنفسه فيما خوّله الله تعالى ملكاً، هان عليه الإنفاق فيما أمره الله تعالى أن يُنفق فيه. وإذا فوّض العبد تدبير نفسه على مدبّره. هان عليه مصائب الدنيا. وإذا اشتغل العبد بما أمره الله تعالى ونهاه لا يتفرّغ منهما إلى المراء والمباهاة مع الناس.

فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هان عليه الدنيا، وإبليس والخلق ولا يطلب الدنيا تكاثراً وتفاخراً، ولا يطلب ما عند النَّاس عزّاً وغلواً، ولا يدع أيامه باطلاً.

فهذا أوّل درجة التّقى؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِينَ﴾ (٨٣) ﴿١﴾.

قلتُ: يا أبا عبد الله! أوصني!

قال: أوصيك بتسعة أشياء فإنّها وصيّتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى، والله أسأل أن يوفّقك لاستعماله.

ثلاثة منها في رياضة النفس وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم. فاحفظها: وإياك والتهاون بها!

قال عنوان: ففرّغت قلبي له.

فقال: أمّا اللواتي في الرياضة:

فإياك أن تأكل ما لا تشتهي، فإنّه يورث الحماسة والبله. ولا تأكل إلاّ عند الجوع وإذا أكلت فكلّ حلالاً وسم الله، واذكر حديث الرسول ﷺ: ما ملاء آدميّ وعاء شراً من بطنه. فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشربه وثلث لنفسه^(١).

وأما اللواتي في الحلم:

فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة. ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي وإن كنت كاذباً فيما تقول فالله أسأل أن يغفر لك. ومن وعدك بالخنعي فعدّه بالنصيحة والرّعاء.

وأما اللواتي في العلم:

فأسأل العلماء ما جهلت: وإياك أن تسألهم تعنّياً^(٢) وتجربةً. وإياك أن تعمل برأيك شيئاً وتُخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً واهرب

(١) كان من ضمن كلام السيّد الحدّاد قوله: أنت تأكل ما يلزمك من الغذاء، أمّا ما زاد عليه فإنّ الغذاء يأكلك.

(٢) يقول في «أقرب الموارد»: تَعَنَّتْهُ: أدخل عليه الأذى وطلب زلّته ومَشَقَّتْهُ. يقال: جاءه مُتَعَنِّتاً، أي طالباً زلّته. و - في السؤال: سأله على جهة التلبّيس عليه وربّما عُذّي به «علّي».

من الفتيا هربك من الأسد؛ ولا تجعل رقبتك للناس جسراً!

قُمْ عَنِّي يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! فَقَدْ نَصَحْتُ لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عَلَيَّ وَرَدِي؛ فَإِنِّي
أَمْرٌ ضَنِينٌ بِنَفْسِي. «وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَدْيَ»^(١).

وبالتأمل والتدقيق في المطالب الواردة في هذا الحديث المبارك في مراده والعظيم في مفاده، تتضح لنا درجة السمو والرفعة التي ارتقت إليها تعاليم آية الحق والعرفان، وسند التحقيق والإيقان، وعماد البصيرة والبرهان: الحاج السيّد علي القاضي (قدّس سرّه) تربته الزكية. فلقد كان يعطي هذه التعاليم التي تنصبّ بشكل كامل في طريق الإعراض عن مشاعر العداء والانتقام وكسر صولة النفس الأمّارة، والعثور على نافذة للإطلاع على عالم المعنى والتجرّد والملكوت. ومن ثم لعرفان ذات الحق تعالى واندكاك الوجود المعار المجازي في الوجود المطلق والوجود المحض والصرف السرمدي الأزليّ الأبدي الذي لا يُتناهى لذاته القدسية.

فرواية عنوان البصريّ ينبغي أن تُؤلّف الكتب في شرحها وتفصيلها. وبالرغم من أنّ ذلك قد حصل فعلاً، إلّا أن تلك الكتب لم تأت باسم شرح رواية عنوان البصريّ. أو ليس كتاب «إحياء الإحياء» القيمّ الجليل للفيض الكاشانيّ الذي دعاه بـ «المحجّة البيضاء» وكتاب «جامع السعادات» للحاج الملامّ مهدي النراقي جدّنا الجليل، وكتاب «عدّة الداعي» وغيرها من الكتب بالحمل الشائع الصناعيّ غير شرح وتفصيل هذه المطالب القيّمة؟!!

(١) «بحار الأنوار»، ج ١، ص ٢٢٢ إلى ٢٢٤، كتاب العلم، الباب ٧: باب آداب طلب العلم وأحكامه، الحديث ١٧، الطبعة الحروفية، المطبعة الحيدرية.

ولقد استشهد الإمام الصادق عليه السلام في هذه الرواية بهذه الآية المباركة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣) يعني: أيها السيّد هاشم! إن كنت تطلب عالم النور والتجرّد والمنزل الباقي والخالد للقاء الله والورود في حرم أمنه وأمانه، وإن كنت تفتّش عن رضا المحبوب، وإن جعلت همّك الأكبر في عرفان الذات القدسية، وإن كنت قد عشقته فعلاً، فأنت تسعى لوصول المعشوق ونيل المُنَى؛ فليس أمامك من سبيل إلاّ التسامي والتعالّي والتنزّه عن الفساد في الأرض.

وإن كنت جاداً في السعي لنيل ذلك المقام المنيع، فعليك الإغماض عن أذى أمّ زوجتك وتجاهله وإلّا فلو رددت عليها وجازيتها على فعلها أو طلّقت زوجتك - مع أنّ ذلك حقّك الشرعي - فإنّك لن تصل إلى هذا المقام. فهذا هو الشرع الأعلى، والجهد الأكبر، وهذه هي الهجرة الكبرى؛ وينبغي تطبيق هذه التعاليم بصورة صحيحة للوصول إلى ذلك الهدف.

ولقد كانت تعاليم الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذه الرواية أيضاً متّخذة من آيات القرآن الكريم المعجزة في قوله:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) ^(١).

أو قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (١٣) ^(٢) و ^(٣).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

(٣) «الروح المجرّد»، ص ١٩١ - ١٩٧.